الارتِقاءُ المَعرِفيُّ في الخِطابِ القُرآنِيّ

د. سفيان الجنابي

العراق- الأنبار
١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م

الارتقاءُ المعرفيُّ في الخطابِ القرآنـيّ

تأليف:

د. سفيان الجنابي

العراق- الأنبار

١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً
مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الحشر: ٢١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

« وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ».

(رواه الإمام مسلم في صحيحه وغيره)

الإهـــــداء:

إلى أَهلِ القُرآن..

مَن تَمسّكوا بالقُرآن..

وتأسَّوا بمَن كانَ خُلُقهُ القُرآن..

فَصاروا كالغَيثِ الطّيّبِ،

أَينَما حَلَّ نفَعَ.

سفيان

تقـديــم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، وبعد..

فهذا كتاب نحاول فيه تسليط بعض الضوء على جانب من جوانب الاعجاز البلاغي-الخطابي في القرآن الكريم وما ينعكس عن ذلك من أثر تربوي في بناء الشخصية الإسلامية لدى المخاطب.

وبناء على يقيننا بأن الله تعالى الذي أنزل القرآن هو أعلم بنفوس وعقول المتلقين لخطابة هذا، وأنه -من تمام فضله ورحمته- قد طرق كل أبواب النفس ومداخلها وبأرقى الأساليب وأكثرها فاعلية لإيصال نور التبليغ لها وإقامة الحجة عليها، فإننا نستطيع بعد ذلك، ومن خلال إتباع هذا المسلك القرآني، من تحديد سمات مهمة لمنهج تربوي قرآني يتضمن أسالیباً تربوية عملية فعالة نحن بأمسِّ الحاجة إليها اليوم لتحقيق الإرتقاء العقلي-المعرفي المطلوب لدى أكبر عدد ممكن من المتلقين

وبأقصر وقت، وبما يسهم في بناء المسلم القادر على التعامل مع تحديات هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها الأمة الإسلامية.

وقد كتبت هذا الكتاب عام ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م في بغداد لغرض الاستفادة منه في تطوير قدرات معلمي الدورات القرآنية في المساجد، ودفعت بنسخة مخطوطة منه إلى بعض الأحبة لغرض طباعتها ونسخها لهذا الهدف، غير أن تطور الأحداث العصيبة في العراق آنذاك جعلني لا أعلم فعلاً هل تم الاستفادة فعلياً من هذا الكتاب في ذلك المضمار أم لا. بل أني قد نسيت (أو كدت أنسى) أمر هذا الكتاب بالكامل، حتى وقعت قبل بضعة أشهر على أصله المكتوب بخط اليد في بعض ملفاتي القديمة، فعزمت عل تنضيده وإعداده بشكل مناسب لأغراض الطباعة والنشر.

وهذا هو الكتاب الذي كتبته قبل عشر سنوات يظهر الآن بفضل الله تعالى، دون زيادة تذكر على أصله، فهو جهد المقلّ، لكني أرجو من الله تعالى أن يكون فيه النفع والقبول، ببركة القرآن الكريم وأهله..

فإن وفقتُ إلى الصواب فذلك فضل من الله تعالى، وإن كان غير ذلك فإني أستغفر الله تعالى منه وأتوب إليه. وعلى الله تعالى اعتمادي، وفيه رجائي، ولا حول ولا قوة إلا به.

وقد تم الفراغ من كتابته في بغداد

بتأريخ ٢٢ ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ

الموافق ١٠ حزيران ٢٠٠٤ م

وتم تهيأته للطباعة والنشر في الأنبار

بتأريخ الثلاثاء ٩ شوال ١٤٣٥هـ

الموافق ٥ آب ٢٠١٤م

د. سفيان الجنابي

العراق

المقدمـــة

لقد ميّز الله تعالى رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بميزة عظيمة هي معجزة القرآن، كما ميّز أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن تعهد لها بحفظ هذا القرآن فيها حتى يرث الله تعالى الأرض ومَن عليها. ويكفينا لأن ندرك عِظَم هذه الميزة أو المعجزة، أن نتفكر كيف أن الله تعالى تحدى الإنس والجن جميعاً بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور من مثله، أو حتى ولو بسورة واحدة من مثله، سواء كانت سورة طويلة أو قصيرة، فوقفت الخليقة بأجمعها عاجزة عن ذلك، من أول يوم لنزول القرآن حتى يومنا هذا، وستبقى كذلك..

إن أمة شأنها أن تحمل كتاب الله تعالى في صدورها وبين أظهرها من غير تحريف ولا تغيير دوناً عن سواها من الأمم حريٌّ بها أن تسوس العالم أجمعه وتقوده وفق منهج الله تعالى لتحقيق سعادة الدارين. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يقول في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه وغيره: (**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِين**).. ولقد تحققتْ

لهذه الأمة الرفعة والسيادة في الدنيا غير مرة، ولكن واقعها اليوم يكاد يكون على النقيض من ذلك. فحقَّ لنا أن نتسال عن سبب هذا الحال.

ويكاد علماء الإسلام كلهم يجمعون اليوم على أن السبب الأساس وراء ذلك هو ابتعاد الأمة عن قرآنها.. وإذا ما أردنا مزيداً من الدقة في هذه الإجابة فنقول هو عدم قدرة الأمة على الوصول إلى الاستفادة الكافية أو المثلى لهذه الميزة التي خصها الله تعالى بها، والتي يمكن لها (لو استُغلتْ) أن تحدثَ انقلاباً جذرياً في موازين القوى، وفي كل معادلات السياسية والاقتصاد والاجتماع في عالم اليوم.

إن افتقار أبناء هذه الأمة لقدرة الاستفادة من القرآن الكريم في تحقيق النقلة الحضارية المطلوبة اليوم لأمتنا أولاً، وللبشرية جمعاء ثانياً، قد جاء لأسباب شتى، وبأشكال ومديات مختلفة الخطورة.. فصنف ممن ينتمون لهذه الأمة اعتبروا القرآن جزءاً من التراث، أو احتفظوا في بيوتهم بنسخة منه للتبرك فحسب (ولسنا ننكر بركة القرآن)، وصنف ثانٍ كان غاية جهدهم أن

يقرؤوا صفحات منه يهذّونه هذّاً ولا يعون شيئاً منه فهم كالعجلة التي تدور في مكانها بسرعة ولكن دون أن تتقدم شبراً واحداً (ولسنا ننكر أجر قراءة القرآن ولا فضل النظر في صفحات المصحف الشريف، ولكننا المسلم ينبغي أن تكون علاقته بكتاب ربه أعمق من ذلك)، وصنف ثالث همهم إقامة الأصوات أو الأنغام لا يتجاوزونها (ولسنا نقلل من أهمية إتقان التلاوة والأداء ولكننا لا نريد للمسلم أن يتوقف عند ذلك)، وصنف رابع جعلوه آلةً للتكسب في المحافل أو المدارس، وصنف خامس وسادس.. وليت الأمر يقف عند حدود هذه الأنماط والأصناف.

إن الأخطر في قضية الابتعاد عن القرآن وعدم استغلال مرتكز تغيير القوى هذا هو ليس أنها مشكلة أصابت عامة المسلمين فحسب، بل أن الذي أصاب خواص المسلمين من حملة العلم الشرعي، والمتصدرين للفتيا، والقائمين على توجيه فعاليات النشاط الإسلامي المختلفة، أقول أن ما أصاب هؤلاء من عدم القدرة على تطوير منهجية قرآنية فعالة لإحداث التغيير

الإسلامي في شتى مناحي الحياة هو المرض العضال الذي منه يجب أن تبدأ مسيرة العلاج.

ولسنا ننفي وجود جهود متميزة قام بها دعاة وعلماء مسلمون في اكتشاف واستنباط مناهج ومسالك ورؤى قرآنية خلّاقة كانت من الأسباب المهمة في تشبث الأمة بدينها رغم عظيم ما حيك عليها من مؤامرات في العقود الأخيرة، ولكننا نزعم أن ما تم تحقيقه لحد الآن لا زال دون الحد المطلوب بدليل وجود قطاعات كبيرة من المسلمين ما زالوا يتحركون في وادي ردود الأفعال دون أن تستطيع الوصول إلى سفح الفعل المبدع الخلّاق، فضلاً عن قمته القرآنية..

إن النظرات التجزيئية لا تزال تحكم بدرجة أو أخرى عدداً غير قليل من المتصدّين للعمل الإسلامي، وذلك في تعاملهم مع النصوص الشرعية ومع الأحكام ومع الواقع، بل وحتى مع التأريخ ومع استقراء المستقبل. ولا زلنا لحد الآن غير قادرين على استنباط كل عناصر التكامل والتوازن والشمول والفاعلية المبثوثة في كل زاوية من زوايا القرآن الكريم، فضلاً عن أن نحوّلها

إلى برامج عملية واقعية للارتقاء بمسيرة الفعل الاسلامي الحضاري. وهذا بالضبط هو الطريق الذي لا نرى غيره لاستمرار هذه المسيرة، ولزيادة وتيرة التعجيل في حركتها أفقياً وعمودياً..

نقول هذا ونحن نعلم أن الوصول إلى المستوى المنشود هو أمر ليس بمقدور فرد أو أفراد، بل هو يحتاج إلى جهود عظيمة مخلصة ومتناسقة يكمّل بعضها الآخر وفق منهجية شرعية منضبطة. وإنما نحن نأمل أن يكون هذا الكتاب والجهد المتواضع خطوة في الطريق، ولَبنة في بناء الصرح.

ويبدأ كتابنا هذا بتسليط الضوء على جانب من جوانب الإعجاز الخطابي للقرآن الكريم في عرض الآيات والدلائل التي تؤكد على وحدانية الله تعالى وكونه المستحِق للعباده دوناً عما سواه، وعلى صِدق ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهدفنا المباشر من ذلك إنما هو استكشاف وسائل أو تمارين عملية فعالة لمخاطبة الناس بناء على ما نستشفه من أسلوب الخطاب القرآني هذا. ومن ثم فإننا نأمل أن يمكننا ذلك من

السير بعض الخطوات المهمة نحو وضع الخطوط العامة لمنهج تربوي قرآني يخدم الارتقاء بمستوى أكبر عدد ممكن من المتلقين وبأسرع ما يمكن من وقت، استجابة لتحديات المرحلة ومتطلباتها.

فالجزء الأول من الكتاب يتم فيه بذل ما يسعنا من جهد في الناحية النظرية التأصيلية للموضوع، والتي اعتمدنا فيها غالباً على ما ذكره كلّاً من الفخر الرازي وأبي الثناء الآلوسي في تفسيريهما.. حيث أننا انتقينا بعضاً من الآيات والمقاطع القرآنية التي رأينا أنها ذات أهمية خاصة فيما نحن بصدده، وحاولنا أن نجد في ما ذكره العلماء والمفسرون فيها ما يضمن سلامة الفهم لهذه الآيات أو لهذا الخطاب القرآني، ويضمن أيضا صحة الاستدلال بها ضمن حدود الضوابط اللغوية والشرعية. وبالإضافة إلى ذلك فقد حاولنا أن نضيف بعضاً من المعاني المقبولة، أو أن نبرز بعضاً مما وجدناه ضامراً منها، أو أن نرجح رأياً، أو نوفّق بين وجهين أو أكثر لمسألة معينة، وبما يثري

الموضوع ويغني أساليب الاستفادة منه من الناحية العملية التطبيقية. نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في ذلك.

وبعد ذلك فإننا سنركز على الناحية العملية أو التطبيقية بأن نذكر بعض التمارين العملية الفعالة، وبعض الخطوط العامة لمنهجية تربوية عملية نتبناها باعتبارها مستمدة من القرآن الكريم.. والله وليّ التوفيق.

تـجديـدُ المرتكَـز

يرتكز العمل في هذا الكتاب على ملاحظة ليست بجديدة، قد سبق أن نبهني إليها بعض الفضلاء، وهي تقوم على استقراء كثيرٍ من الآيات القرآنية التي يدور محتواها على ذكر دلائل وآيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس، أو عن أحكام تشريعية معينة، أو أمثال قرآنية يقرّب بها الحقُّ جلّ وعلا فهمَ أمر معين للمتلقين، وما إلى ذلك من الأشياء.. حيث أن هذه الآيات القرآنية غالباً ما تُختتم بعبارات أو جُمَل مثل (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أو (إن في ذلك لآية لقوم يسمعون) أو (قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون) أو (أفلا يبصرون)، ونحو ذلك..

ولأننا نومن جازمين بأن القرآن هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، ولأننا نعرف أن مما يعيب كلام المخلوقين وجودُ حشوٍ أو زيادات لا فائدة منها فيه، فإذا كان الأمر كذلك فإن كلام الله تعالى (ولله تعالى المثَل الأعلى) ومن باب أولى لا بد أن يكون منزّها عن كل حشوٍ أو زيادة لا داعي لها. وبناءً عليه فإن كل كلمة وردتْ في القرآن الكريم قد

وُضعتْ في موضعها الأفضل، وعلى وضعها الأمثل، بحيث أنه لا يمكن لموضعها ذاك أن يخلو منها، ولا يمكن لكلمة أخرى أن تحل محلها فيه دون إخلال بالمبنى أو بالمعنى أو بكليهما.

وبذلك يكون استخدام كلمة (يعقلون) أو أحد تصريفاتها مثلاً في التعقيب على قضية ما في آية قرآنية هو أمر مقصود لحكمة فيه، بحيث أننا لو افترضنا وضع كلمة بديلة أخرى مثل (يتفكرون) أو (يعلمون) لحصل خلل في الكلام وفي المغزى من ورائه. وكلام الله تعالى منزّه عن مثل هذا.

ورغم أن آيات الآفاق والأنفس والأحكام، والأمثال التي يضربها الله تعالى في كتابه، هي موجهة لكل الناس إلا أن الله تعالى يخصصها أحياناً بأنها آيات (لقوم يتفكرون) أو (لقوم يعقلون) أو (للمتوسمين) أو نحو ذلك، لأن هؤلاء هم المنتفعون بها خصوصاً، وكما قال بذلك غير واحد من المفسرين.

ولأن صفات الناس الذي ينتفعون بهذه الآيات والدلائل تتغير من آية قرآنية إلى أخرى، بحسب مضمون الآية وسياقها، وبناءً على ما أسلفناه سابقاً، فإننا نستطيع أن نستنبط من هذا أن

الناس عموماً، وبما فيهم أصحاب الإيمان، يتمايزون بصفات وقدرات عقلية وفكرية مختلفة. وبما أن العقل الإنساني هو مدار التكليف، فقد راعى الخطاب القرآني القدرات العقلية ومرحلة النضج العقلي-المعرفي للمخاطَبين، وذلك لغرض إيصال البلاغ الرباني (بفضل الله ورحمته) إليهم على أتم وجه وأكمله، وبما يضمن إقامة الحجة عليهم. وعليه يمكننا تقرير أمرين أساسيين، هما:

أولاً: لا بد للمسلمين اليوم في مناهجهم وأساليبهم في التعليم والتربية العامة أو الخاصة من أن يأخذوا بنظر الإعتبار اختلاف العقول والطبائع، ومراحل النضج التي يمر بها الأفراد والمجتمعات.

ثانياً: ينبغي بمن بتصدى لمهام لتربية والتعليم من المسلمين أن يقوم تصنيفه للناس (المتلقين) في قابلياتهم وقدراتهم العقلية والفكرية، واستعداداتهم الإيمانية، على أساس قرآني واضح وشامل.

إن تقصّي الآيات القرآنية التي خُتمت بما يشير إلى أنها تحوي دلائل تنفع قوماً يمتازون بصفة معينة، أو أنها وسيلة لتحقيق

تلك الصفة فيهم، مثل (لعلكم تتقون) أو (لعلكم تعقلون) أو ما شابه، يمكن أن يقودنا إلى التعرف على وجود أنماط عقلية-معرفية متمايزة لدى الناس، وأن المدخل للتأثير فيهم يختلف تبعاً لذلك. كما يمكن أن يكون في ذلك إشارة إلى وجود نوعين أو أسلوبين من التصنيف للناس في هذا الصدد، هما:

١. تصنيفٌ أفقي يقوم على وجود أنماط عقلية فكرية متمايزة لدى مختلف الناس.
٢. تصنيفٌ عمودي يقوم على أن الناس أنفسهم يمرّون في حياتهم بمراحل نضج مختلفة، تختلف فيها استعداداتهم العقلية والروحية.

وفي كلا الحالين علينا أن نعرف أسلوب الخطاب، وبالتالي منهج التربية والتعليم المناسب لكل فئة أو صنف من البشر. وهذا

مايتفق تماما مع ما ورد في الأثر من ضرورة مخاطبة الناس على قدر عقولهم[1].

ولأجل التعرف بدقة أكبر على المنهج القرآني في هذا التصنيف، فقد قمنا بجمع الآيات القرآنية التي تشير إلى أناس يحملون أو يمتازون بصفة معينة، مثل كونهم (يعقلون) أو (يؤمنون) أو (يسمعون) أو غير ذلك، وبمختلف التراكيب والتصريفات لتلك الكلمات أو الصفات، ووضَعنا كل مجموعة آيات تشير إلى صفة معينة على حدة، ثم حاولنا استنباط التصنيف المناسب للناس على أساس تلك المجاميع من الآيات، سواء كان ذلك التصنيف أفقياً أو عمودياً. وبعد ذلك حاولنا أن نرى اختلاف أسلوب أو محتوى الخطاب الذي استعمله الله تعالى في القرآن مع كلٍّ من تلك الأصناف والفئات، لنتوصل في النهاية إلى استخلاص تمارين أو فعاليات تعليمية تدريبية تناسب كل فئة.

---

[1] عن عَلِيّ بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه قال: (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُه؟)، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، باب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا.

إن غاية من نأمله في هذا الكتاب هو أن نوفق لوضع بعض الملامح أو الأسس السليمة لمنهج قرآني للتربية الفعالة الواسعة النطاق. أما وضع هذا المنهج كاملاً، أو حتى التوصل إلى التصنيف القرآني للناس (المتلقين للخطاب) بشكل كامل وشامل ودقيق، فتلك أمور تحتاج إلى مزيد بحث وجهد وتمحيص، نتمنى أن يكون جهدنا هذا هو فاتحة خير له.

وإن من الأشياء المهمة التي ينبغي الاهتمام بها في أي جهدٍ لاحقٍ هو أن كل آية في القرآن قد وُضعت في موضعها بوحي. مما يعني أن معناها يقع ضمن سياق معين، وبالتالي يجب الانتباه إلى هذا السياق عند محاولة الاستفادة من تلك الآية في الإتجاه الذي ذكرناه. كما يجب الانتباه أيضا إلى وجود شخصية مستقلة لكل سورة، تحمل وحدة معنوية. وبذلك نضمن أن لا تكون استنباطاتنا مختلة نتيجة النظر إلى الآيات بمعزل تام عن بعضها. وهذا هو الأمر الذي نظن أن جهدنا المتواضع هذا لم ينجُ منه تماماً بسبب بضاعة صاحبه المزجاة في العلم.

في تفسيره لقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.) (سورة الروم:٢١-٢٣)، يقول الفخر الرازي: [قال: (لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) وَقَالَ مِنْ قَبْلُ: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وَقَالَ: (لِلْعالِمِينَ) فَنَقُولُ الْمَنَامُ بِاللَّيْلِ وَالِابْتِغَاءُ مِنْ فَضْلِهِ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَوِ الْغَافِلُ أَنَّهُمَا مِمَّا يَقْتَضِيهِ طَبْعُ الْحَيَوَانِ فَلَا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ كَوْنُهُمَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ فَلَمْ يَقُلْ آيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ، وَلِأَنَّ الْأَمْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ اخْتِلَافُ الْأَلْسِنَةِ وَالْأَلْوَانِ مِنَ اللَّوَازِمِ وَالْمَنَامُ وَالِابْتِغَاءُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُفَارِقَةِ فَالنَّظَرُ إِلَيْهِمَا لَا يَدُومُ لِزَوَالِهِمَا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَلَا كَذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأَلْسِنَةِ وَالْأَلْوَانِ، فَإِنَّهُمَا يَدُومَانِ بِدَوَامِ الْإِنْسَانِ، فَجَعَلَهُمَا آيَاتٍ عَامَّةً، وَأَمَّا قَوْلُهُ: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يَعْلَمُ مِنْ

غَيْرِ تَفَكُّرٍ، وَمِنْهَا مَا يَكْفِي فِيهِ مُجَرَّدُ الْفِكْرَةِ، وَمِنْهَا مَا لَا يَخْرُجُ بِالْفِكْرِ بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى مَوْقِفٍ يُوقَفُ عَلَيْهِ وَمُرْشِدٍ يُرْشِدُ إِلَيْهِ، فَيُفْهِمُهُ إِذَا سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمُرْشِدِ، وَمِنْهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ فِي تَفَهُّمِهِ إِلَى أَمْثِلَةٍ حِسِّيَّةٍ كَالْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ، لَكِنَّ خَلْقَ الْأَزْوَاجِ لَا يَقَعُ لِأَحَدٍ أَنَّهُ بِالطَّبْعِ إِلَّا إِذَا كَانَ جَامِدَ الْفِكْرِ خَامِدَ الذِّكْرِ، فَإِذَا تَفَكَّرَ عَلِمَ كَوْنَ ذَلِكَ الْخَلْقِ آيَةً، وَأَمَّا الْمَنَامُ وَالِابْتِغَاءُ فَقَدْ يَقَعُ لِكَثِيرٍ أَنَّهُمَا مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى مُرْشِدٍ بِغَيْرِ فِكْرَةٍ، فَقَالَ: (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) وَيَجْعَلُونَ بالهم إلى كلام المرشد][٢].

والظاهر (والله تعالى أعلم) أن الرازي في تفسيره لهذه الآيات يأخذ بقراءة (لِلْعالَمِينَ) بفتح اللام الثالثة كما قرأ بذلك جميع القراء العشرة ورواتهم، إلا حفصاً عن عاصم فقد قرأها بكسر اللام. ورغم أن قراءة حفص هذه قد تضفي بعداً آخر لمدلول

[٢] الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ): مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية- طهران، والطبعة الثالثة لدار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٠هـ.

الآية إلا أن الرازي لم ينبه إلى ذلك واكتفى بقوله: [ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (لَآياتٍ لِلْعالمِينَ) لَمَّا كَانَ خَلْقُ السموات وَالْأَرْضِ لَمْ يَحْتَمِلِ الِاحْتِمَالَاتِ الْبَعِيدَةَ الَّتِي يَقُولُهَا أَصْحَابُ الطَّبَائِعِ وَاخْتِلَافُ الْأَلْوَانِ كَذَلِكَ وَاخْتِلَافُ الْأَصْوَاتِ كذلك قال: (لِلْعالمِينَ) لعموم العلم بذلك][٣]..

وقد استمر الرازي في توضيح السبب في اختلاف مقاطع ختم الآيات القرآنية في تفسيره للآية التي تليها وهي قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة الروم:٢٤)، قائلاً: [قَالَ هَاهُنَا: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لَمَّا كَانَ حُدُوثُ الْوَلَدِ مِنَ الْوَالِدِ أَمْرًا عَادِيًّا مُطَّرِدًا قَلِيلَ الِاخْتِلَافِ كَانَ يَتَطَرَّقُ إِلَى الْأَوْهَامِ الْعَامِّيَّةِ أَنَّ ذَلِكَ بِالطَّبِيعَةِ، لِأَنَّ الْمُطَّرِدَ أَقْرَبُ إِلَى الطَّبِيعَةِ مِنَ الْمُخْتَلِفِ، لَكِنَّ الْبَرْقَ وَالْمَطَرَ لَيْسَ أَمْرًا مُطَّرِدًا غَيْرَ مُتَخَلِّفٍ إِذْ يَقَعُ بِبَلْدَةٍ دُونَ بَلْدَةٍ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَتَارَةً تَكُونُ قَوِيَّةً وَتَارَةً تَكُونُ ضَعِيفَةً فَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْعَقْلِ دَلَالَةً عَلَى

[٣] المصدر السابق نفسه.

الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، فَقَالَ هُوَ آيَةٌ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ إن لم يتفكر تفكراً تاماً][٤].. كما قال في موضع لاحق: [فَنَقُولُ فِي الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ ذَكَرَ أَنَّهَا آيَاتٌ لِلْعَالِمِينَ وَلِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لِظُهُورِهَا][٥].

أما في الآية ٢١ المذكورة أعلاه، والتي اعتبر الرازي أن ما ذُكر فيها من دلائل هو ما يحتاج الى فكر لإدراكه، فقد قال في تفسيره لها: [وَقَوْلُهُ: (إِنَّ فِي ذلِكَ) يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ الْمُرَادُ إِنَّ فِي خَلْقِ الْأَزْوَاجِ لَآيَاتٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ فِي جَعْلِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ آيَاتٌ أَمَّا الْأَوَّلُ: فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ فِكْرٍ لِأَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَنُفُوذِ الْإِرَادَةِ وَشُمُولِ الْعِلْمِ لِمَنْ يَتَفَكَّرُ وَلَوْ فِي خُرُوجِ الْوَلَدِ مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ، فَإِنَّ دُونَ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ لَأَفْضَى إِلَى هَلَاكِ الْأُمِّ وَهَلَاكِ الْوَلَدِ أَيْضًا لِأَنَّ الْوَلَدَ لَوْ سُلَّ مِنْ مَوْضِعٍ ضَيِّقٍ بِغَيْرِ إِعَانَةِ اللَّهِ لَمَاتَ وَأَمَّا الثَّانِي: فَكَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ بَيْنَ الْقَرِينَيْنِ مِنَ التَّرَاحُمِ مَا لَا يَجِدُهُ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ الشَّهْوَةِ فَإِنَّهَا قَدْ تَنْتَفِي

---

[٤] المصدر السابق نفسه.

[٥] المصدر السابق نفسه.

وَتَبْقَى الرَّحْمَةُ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ وَلَوْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُجَرَّدُ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبُ كَثِيرُ الْوُقُوعِ وَهُوَ مُبْطِلٌ لِلشَّهْوَةِ وَالشَّهْوَةُ غَيْرُ دَائِمَةٍ فِي نَفْسِهَا لَكَانَ كُلَّ سَاعَةٍ بَيْنَهُمَا فِرَاقٌ وَطَلَاقٌ فَالرَّحْمَةُ الَّتِي بِهَا يَدْفَعُ الْإِنْسَانُ الْمَكَارِهَ عَنْ حَرِيمِ حَرَمِهِ هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ولا يُعلم ذلكَ إلّا بِفكر][٦].

وهذا كله يتفق مع تعريف الرازي لمصطلحي العقل والفكر، كما أورده عند تفسيره للآيات ١٠-١٦ من سورة الزمر، حيث قال: [وَأَمَّا الْعَقْلُ فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْعُلُومِ الْبَدِيهِيَّةِ وَهَذِهِ الْعُلُومُ هِيَ رَأْسُ الْمَالِ وَالنَّظَرُ، وَالْفِكْرُ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا تَرْتِيبُ عُلُومٍ لِيُتَوَصَّلَ بِذَلِكَ التَّرْتِيبِ إِلَى تَحْصِيلِ عُلُومٍ كَسْبِيَّةٍ][٧].

كما أضاف الرازي في تفسيره لقول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الرعد:٣) قائلاً: [وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى فِي أَكْثَرِ

---

[٦] المصدر السابق نفسه.

[٧] المصدر السابق نفسه.

الْأَمْرِ حَيْثُ يَذْكُرُ الدَّلَائِلَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ يَذْكُرُ عَقِبَهَا: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ بِحَسَبِ الْمَعْنَى، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ يُسْنِدُونَ حَوَادِثَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ إِلَى الِاخْتِلَافَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي الْأَشْكَالِ الْكَوْكَبِيَّةِ، فَمَا لَمْ تَقُمِ الدَّلَالَةُ عَلَى دَفْعِ هَذَا السُّؤَالِ لَا يَتِمُّ الْمَقْصُودُ، فَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَجَالُ الْفِكْرِ بَاقٍ بَعْدُ وَلَا بُدَّ بَعْدَ هَذَا الْمَقَامِ مِنَ التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ لِيَتِمَّ الِاسْتِدْلَالُ][٨].

وإلى مثل هذا الرأي مال المفسِّر الآلوسي. ففي تفسيره للآية الثالثة من سورة الرعد ذاتها، قال: [والمشهور -أي في الفكر- أنه ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول][٩]، ثم نقل رأي الرازي بالمسألة. كما أن الآلوسي وعند تفسيره للآية التي بعدها وهي قوله تعالى: (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ

---

[٨] المصدر السابق نفسه.

[٩] شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، والطبعة الأولى لدار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٥هـ.

أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة الرعد:٤) ذكر أنه [وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق، علّقَ سبحانه كونها آيات بمحض التعقل كما قال أبو حيان وغيره. ولذلك على ما قيل لم يتعرض جلّ شأنه لغير تفضيل بعضها على بعض في الأكل الظاهر لكل عاقل، مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمّل وتفكّر، كأنه لاحاجة إلى التفكر في ذلك أيضا، وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين][١٠].

أما الرازي فقد ذكر في تفسيره لهذه الآية ما يلي: [اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِقَامَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حُدُوثُ الْحَوَادِثِ فِي هَذَا الْعَالَمِ لِأَجْلِ الِاتِّصَالَاتِ الْفَلَكِيَّةِ، وَالْحَرَكَاتِ الْكَوْكَبِيَّةِ... وَاعْلَمْ أَنَّ بِذِكْرِ هَذَا الْجَوَابِ قَدْ تَمَّتِ الْحُجَّةُ فَإِنَّ هَذِهِ الْحَوَادِثَ السُّفْلِيَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُؤَثِّرٍ وَبَيَّنَّا أَنَّ

---

[١٠] المصدر السابق نفسه.

ذَلِكَ الْمُؤَثِّرَ لَيْسَ هُوَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَفْلَاكَ وَالطَّبَائِعَ فَعِنْدَ هَذَا يَجِبُ الْقَطْعُ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ فَاعِلٍ آخَرَ سِوَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَعِنْدَهَا يَتِمُّ الدَّلِيلُ، وَلَا يَبْقَى بَعْدَهُ لِلْفِكْرِ مَقَامٌ الْبَتَّةَ، فَلِهَذَا السَّبَبِ قَالَ هَاهُنَا: (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لِأَنَّهُ لَا دَافِعَ لِهَذِهِ الْحُجَّةِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْحَوَادِثَ السُّفْلِيَّةَ حَدَثَتْ لَا لِمُؤَثِّرٍ الْبَتَّةَ وَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي كَمَالِ الْعَقْلِ، لِأَنَّ الْعِلْمَ بِافْتِقَارِ الْحَادِثِ إِلَى الْمُحْدِثِ لَمَّا كَانَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا كَانَ عَدَمُ حُصُولِ هَذَا الْعِلْمِ قَادِحًا فِي كَمَالِ الْعَقْلِ فَلِهَذَا قَالَ: (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ: (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرعد:٣). فَهَذِهِ اللَّطَائِفُ نَفِيسَةٌ مِنْ أَسْرَارِ عِلْمِ الْقُرْآنِ وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا سَبَبًا لِلْفَوْزِ بِالرَّحْمَةِ وَالْغُفْرَانِ][11].

وفي هذا ما يشير إلى أهمية التدرج في إيراد الحجج للمقابل بما يضيق عليه منافذ الهروب من مواجهة الحقيقة الصارخة، وبما يجعله في لحظة صدق في مواجهة نفسه، فتقام حجة التبليغ

---

[11] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

عليه.. وفيه أيضاً إشارة إلى أهمية أن نأخذ بالإعتبار موضع الآية من السورة والسياق الذي وردت فيه عند تصدينا لمحاولة الاستدلال بها.

وقد أكد الآلوسي الأمر ذاته في أكثر من موضع من تفسيره. ففي قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.) (سورة النحل:١٠-١١) ذكر ما نصه: [وحيث كان الاستدلال بما ذكر لاشتماله على أمر خفي محتاج إلى التفكر والتدبر لمن له نظر سديد، ختم الآية بالتفكر][١٢]. وكذلك في تفسيره لقوله تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.)

---

[١٢] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

(سورة النحل:٦٨-٦٩)، قال: [ولما كان شأنها في ذلك عجيباً يحتاج إلى مزيد تأمل، ختم سبحانه الآية بالتفكر][١٣].

وأما في قضية العقل، فقد أكد الآلوسي أيضاً ما ذهب إليه في مواضع أخرى، ومنها تفسيره لقوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة النحل:١٢) والذي ذكر فيه: [وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر، جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير تأمل وتفكر، كأنها لمزيد ظهورها مُدرَكة ببداهة العقل بخلاف الآثار السفلية في ذلك][١٤].
وكذلك في تفسيره لقوله تعالى: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ. وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.) (سورة النحل:

---

[١٣] المصدر السابق نفسه.

[١٤] المصدر السابق نفسه.

٦٦-٦٧) حيث قال: [وأنا أقول إذا كان في الآية إشارة إلى الحط من أمر السكر، ففي الختم المذكور تقوية لذلك، وله في النفوس موقع][١٥]. أما الرازي فقد علّقَ هنا بالقول: [والمعنى أنه من كان عاقلاً، علِم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى][١٦].

[١٥] المصدر السابق نفسه.

[١٦] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

فِقهُ العالِمِ وعِلمُ الفقيهِ

لقد ذكر الآلوسي وجهاً آخر لمسألة العقل والتفكر يخالف ما أوردناه آنفاً. وقد عدّ الآلوسي هذا الوجه الذي سنذكره هنا مرجوحاً. قال الآلوسي عند تفسيره للآية رقم ١٢ من سورة النحل السالف ذكرها: [وجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك والمشار إليه نهاية تعاجيب الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدى لمعرفتها إلا المهرة الذين لهم نهاية الإدراك من أساطين علماء الحكمة، وحينئذ قطع الآية بقوله سبحانه هنا (يعقلون) للإشارة إلى احتياج ذلك إلى التفكر أكثر من غيره. والأول -أي الرأي الذي ذكرناه في السابق- أولى كما لا يخفى][١٧].

وهذا الوجه الآخر يفتح لنا باباً في النظر يساعدنا على التوفيق في تفسير الآية رقم ٢٢ من سورة الروم إذا ما أخذنا في الإعتبار قراءة حفص لها بكسر اللام الثالثة من (لِلْعالِمِينَ)، فكأن هذه

---

[١٧] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

الآية تشير إلى مستويين متفاضلين من الفهم والإدراك: مستوى أولي لعموم الناس –على وفق قراءة أغلب القراء–، ومستوى آخر أكثر رقياً لكنه يتطلب دقة وعلماً ودراية لا تكون إلا لمن اتصف بالعلم حتى أصبح عالماً –وفق قراءة حفص–. ولعلنا نستطيع أن نقول مثل هذا، من وجود أكثر من مستوى لإدراك الآيات والدلائل التي ترد في القرآن الكريم يعتمد على استعدادات ومهارات المتلقي، وكلها تصبّ ضمن المعنى الشرعي والمدلول اللغوي الصحيح للآية القرآنية، فيجد العالِم فيها ضالته، كما يجد الإنسان البسيط فيها ذلك، وبما يتناسب مع مؤهلات كل منهما، والله تعالى أعلم.

وهذا الذي نذهب إليه ربما يقع ضمن ما أشار إليه الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) (سورة العنكبوت:٤٣)، بعد أن ضرب الله تعالى المثل ببيت العنكبوت، قال الرازي: [ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ)، يَعْنِي حَقِيقَتَهَا وَكَوْنُ الْأَمْرِ كَذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ بِبُطْلَانِ مَا سِوَى اللَّهِ وَفَسَادِ عِبَادَةِ مَا عَدَاهُ،

وَفِيهِ مَعْنًى حُكْمِيٌّ وَهُوَ أَنَّ الْعِلْمَ الْحَدْسِيَّ يَعْلَمُهُ الْعَاقِلُ وَالْعِلْمَ الْفِكْرِيَّ الدَّقِيقَ يَعْقِلُهُ الْعَالِمُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ أَمْرٌ ظَاهِرٌ أَدْرَكَهُ كَمَا هُوَ بِكُنْهِهِ لِكَوْنِ الْمُدْرَكِ ظَاهِرًا وَكَوْنِ الْمُدْرَكِ عَاقِلًا، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى كَوْنِهِ عَالِمًا بِأَشْيَاءَ قَبْلَهُ، وَأَمَّا الدَّقِيقُ فَيَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ سَابِقٍ فَلَا بُدَّ مِنْ عَالِمٍ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ دَقِيقًا فِي غَايَةِ الدِّقَّةِ فَيُدْرِكُهُ وَلَا يُدْرِكُهُ بِتَمَامِهِ وَيَعْقِلُهُ إِذَا كَانَ عَالِمًا][١٨].

وقضية العلم الكسبي الدقيق أو التخصصي قد يكون لها دور حاسم في الوصول في إدراك الآيات والدلائل القرآنية إلى مداه الأبعد، ضمن نطاق إمكانيات العقل البشري؛ فتعظُم فرصةُ الانتفاع بهذه الآيات. وكما جاء في تفسير الرازي لقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة يونس:٥)، حيث ذكر أن في تفسير قوله تعالى (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) قولين، هما: [الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ

[١٨] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

مِنْهُ الْعَقْلُ الَّذِي يَعُمُّ الْكُلَّ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ مَنْ تَفَكَّرَ وَعَلِمِ فَوَائِدَ مَخْلُوقَاتِهِ وَآثَارَ إِحْسَانِهِ، وَحُجَّةُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: عُمُومُ اللَّفْظِ، وَحُجَّةُ الْقَوْلِ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَخُصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعُلَمَاءَ بِهَذَا الذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهَذِهِ الدَّلَائِلِ، فَجَاءَ كَمَا فِي قَوْلِهِ: (إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها) (سورة النَّازِعَاتِ:٤٥) مَعَ أنه عليه السلام كان منذراً للكل][١٩].

وفي هذا السياق يرد تساؤل مفاده: أيهما أبلغُ العلمُ أمِ الفقهُ؟.. وفي المسألة قولان ذكرهما الآلوسي في تفسيره لقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (سورة الأنعام:٩٧-٩٨)، حيث قال: [قيل: ذَكَرَ مع ذِكر النجوم (يَعْلَمُونَ) ومع ذكر إنشاء بني آدم (يَفْقَهُونَ) لأن الإنشاء من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوالهم المختلفة ألطف

[١٩] المصدر السابق نفسه.

وأدق صنعة وتدبيراً، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له، وهو مبني على أن الفقه أبلغ من العلم][٢٠]، وهذا هو القول الأول.

أما القول الثاني فقد ذكر فيه ما يلي: [وذكر ابن المنير وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله تعالى ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولا خارجة عن أنفس النظار، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة وتقليبهم في أطوار مختلفة وأحوال متغايرة، فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها، فإذا تمهد هذا فجهل الإنسان بنفسه وأحواله وعدم النظر والتفكر فيها أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ومقادير سيرها وتقلبها، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم، إذ هو عبارة عن

---

[٢٠] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

الفهم نفي بطريق التعريض عن أبشع القبيلتين جهلاً وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى فخص به أسوأ الفريقين حالا. و(يَفْقَهُونَ) هاهنا مضارع فَقِهَ الشيء -بكسر القاف- إذا فهمه ولو أدنى فهم، وليس من فَقُهَ -بالضم- لأن تلك درجة عالية ومعناه صار فقيهاً. ثم ذكرَ أنه إذا قيل: فلان لا يفقه شيئاً كان أذم في العرف من قولك: فلان لا يعلم شيئاً، وكان معنى قولك: لا يفقه شيئاً ليست له أهلية الفهم وإن فهم؛ وأما قولك: لا يعلم شيئاً فغايته عدم حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو تعلّم. واستدل على أن التارك للتفكر في نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة في غيره بقوله سبحانه: (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (سورة الذاريات: ٢٠-٢١)، فخصَّ التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً، والله تعالى أعلم بأسرار كلامه][٢١].

---

[٢١] المصدر السابق نفسه.

والحقيقة أن الآلوسي ذكر في المسألة قولاً آخر مفاده أن (يَعْلَمُونَ) و(يَفْقَهُونَ) كلاهما بمعنى واحد. وهذا القول الأخير مما نميل إلى تضعيفه، لما سبق أن قدمناه آنفاً.

وما يبدو لنا أن القولين الأولين اللذينِ ذكرناهما لا يختلفان كثيراً في دلالة (يَعْلَمُونَ) ولكنهما يفترقان في مدلول (يَفْقَهُونَ). ويلاحظ أننا هنا نتحدث عن المدلول اللغوي للكلمات، وليس عن المدلولات الاصطلاحية التي طرأتْ لاحقاً، حيث جعل العرف مصطلح (الفقه) على سبيل المثال خاصاً بعلم الشريعة شرفها الله تعالى وتخصيصاً بعلم الفروع منها.

وما نرجحه نحن في المسألة هو أن كلا المعنيين مقصود بالنسبة لكلمة (يَفْقَهُونَ). ولنا دليل في هذا من تفسير الرازي لقوله تعالى: (هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ.) (سورة المنافقون:٧-٨)، حيث قال: [فَإِنْ قِيلَ: قَالَ

فِي الْآيَةِ الْأُولَى: (لَا يَفْقَهُونَ) وَفِي الْأُخْرَى (لَا يَعْلَمُونَ) فَمَا الْحِكْمَةُ فِيهِ؟ فَنَقُولُ: لِيُعْلَمَ بِالْأَوَّلِ قِلَّةُ كِيَاسَتِهِمْ وَفَهْمِهِمْ، وَبِالثَّانِي كَثْرَةُ حَمَاقَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ، وَلَا يَفْقَهُونَ مِنْ فَقِهَ يَفْقَهُ، كَعَلِمَ يَعْلَمُ، وَمِنْ فَقُهَ يَفْقُهُ: كَعَظُمَ يَعْظُمُ، وَالْأَوَّلُ لِحُصُولِ الْفِقْهِ بِالتَّكَلُّفِ وَالثَّانِي لَا بِالتَّكَلُّفِ، فَالْأَوَّلُ عِلَاجِيٌّ، والثاني مزاجيٌّ][٢٢].

فكأن كلمة (يَفْقَهُونَ) تحتمل كلا المعنيين السابق ذكرهما. ومن هذا التوجيه الأخير نستطيع تلمس الحكمة في عدم استخدام كملة (يَتفكّرون) مثلاً بدلاً عن كلمة (يَفْقَهُونَ)، والله تعالى أعلم.

[٢٢] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

للناس فيما يفهمون مذاهب!

لقد ذكرنا في موضع سابق على أن هناك من الآيات الربانية والدلائل ما لا يكون الإنسان مؤهلاً لإدراكه بمجرد غريزة العقل، ولا حتى بمجرد إعمال الفكر فيه، بل إن ذلك يستلزم موجّهاً ومرشداً. ومثل هذه الأدلة عندما تذكر في القرآن، يكون التعقيب المناسب لها استخدام كلمة (يَسْمَعون) أو ما شابه.

وهنا نضيف إلى ذلك المعنى معنىً آخر لا يقل أهمية، لتمييز الفرق بين التعقيب بكلمة (يَسْمَعون) أحيانا وبكلمة (يُبْصِرون) في أحيان أخرى، أو ما هو مشتق منهما. ومن ذلك قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ.) (سورة السجدة:٢٦-٢٧).

وقد بيّن الرازي في قوله تعالى هنا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ) أنه [اعتبر فيه السمع لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم، فقال (أَفَلا يَسْمَعُونَ) يعني ليس

لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه][٢٣]. أما في تفسير قوله تعالى (أَفَلا يُبْصِرُونَ) فقال الرازي: [لأن الأمر يُرى بخلاف حال الماضين فإنها كانت مسموعة][٢٤].

ولذلك نرى أن الله تعالى يورد في معرض إثبات إلوهيته ووحدانيته وصدق رسوله للناس أصنافاً شتى من الآيات منها ما يحتاج إلى السمع والإنصات ليحصل التدبر، فيعقب عليها باستخدام كلمة (يَسْمَعون) أو ما شابه؛ ومنها ما يكون ظاهراً للعيان وواضحاً للناظر، فيكون التعقيب المناسب لها هو باستخدام كلمة (يُبْصِرون) وما شابهها. ولذلك استخدم تعالى كلمة (تُبْصِرُونَ) في قوله (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (سورة الذاريات:٢١) قال الرازي: [وقوله (أَفَلا تُبْصِرُونَ) بالاستفهام إشارة إلى ظهورها][٢٥]، يقصد بذلك ظهور الآيات التي في الأنفس.

---

[٢٣] المصدر السابق نفسه.

[٢٤] المصدر السابق نفسه.

[٢٥] المصدر السابق نفسه.

وإذا ما اتفقنا على أن الله تعالى –ومن واسع رحمته وفضله– يستخدم آيات ودلائل يمكن إدراكها باستخدام آليات وحواس مختلفة لتلائم أنماط المتلقين أو تفضيلاتهم، بمعنى طرق كل أبواب الدخول إلى نفس المتلقي وعقله وبما يتناسب مع اختلاف طبائع المتلقين وقدراتهم، فيكون من المناسب هنا أن نذكر الخلاف المشهور في أيهما أفضل السمعُ أم البصرُ؟.. حيث ذكر الرازي جوانب مهمة من هذا الخلاف عند تفسيره لقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ.) (سورة يونس:٤٢–٤٣).. وننقل هنا ما ذكره الرازي باختصار، حيث قال:

[ومنهم من يستمع كلامك مع إنه يكون كالأصم من حيث أنه لا ينتفع ألبتة بذلك الكلام. فإن الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان آخر، عظمتْ نفرته عنه، وصارت نفسه متوجهة إلى طلب مقابح كلامه، معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه. فالصمم في الأذن معنى ينافي حصول إدراك الصوت، فكذلك

حصول هذا البغض الشديد كالمنافي للوقوف على محاسن ذلك الكلام. والعمى في العين معنى ينافي حصول إدراك الصورة، فكذلك البغض ينافي وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه، والوقوف على ما آتاه الله من الفضائل. فبيّنَ تعالى أن في أولئك الكفار من بلغتْ حالته في البغض والعداوة إلى هذا الحد..

واحتجَّ ابن قتيبة بهذه الآية على أن السمع أفضل من البصر، فقال: إن الله تعالى قرَنَ بذهاب السمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر. وزيّفَ ابن الأنباري هذا الدليل، فقال: إن الذي نفاه الله مع السمع بمنزلة الذي نفاه الله مع البصر، لأنه تعالى أراد إبصار القلوب ولم يُرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله. واحتج ابن قتيبة على هذا المطلوب بحجة أخرى من القرآن، فقال: كلما ذكر الله تعالى السمع والبصر فإنه في الأغلب يقدّم السمع على البصر، وذلك يدل على أن السمع أفضل من البصر. ومن الناس من ذكر في هذا الباب دلائل أخرى، منها:

١. إن العمى قد وقع في حق الأنبياء عليهم السلام، أما الصمم فغير جائز عليهم، لأنه يخل بأداء الرسالة من حيث أنه إذا لم يسمع الكلام السائلين تعذّر عليه الجواب.

٢. إن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب، والقوة الباصرة لا تدرك المرئي إلا من جهة واحدة وهي المقابل.

٣. إن الإنسان إنما يستفيد العلم بالتعلم من الأستاذ، وذلك لا يمكن إلا بقوة السمع ولا يتوقف على قوة البصر.

٤. إنه تعالى قال: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (سورة ق:٣٧)، والمراد من القلب ههنا العقل، فجعل السمع قرينا للعقل. ويتأكد هذا بقوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (سورة تبارك:١٠)، فجعلوا السمع سبباً للخلاص من عذاب السعير.

٥. إن المعنى الذي يمتاز به الإنسان من سائر الحيوان هو النطق والكلام، وإنما ينتفع بذلك بالقوة السامعة.

٦. إن نبوة الأنبياء ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية، وإنما حصلت بسبب ما معهم من الأصوات المسموعة، وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام.

فهذا جملة ما تمسك به القائلون بأن السمع أفضل من البصر. ومن الناس من قال البصر أفضل من السمع، ويدل عليه وجوه، منها:

١. إنهم قالوا في المثل المشهور (ليس وراء العيان بيان)، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الإبصار.
٢. إن آلة القوة الباصرة هو النور، وآلة القوة السامعة هو الهواء، والنور أشرف من الهواء.
٣. إن عجائب حكمة الله تعالى في تخليق العين التي هي محل الإبصار أكثر من عجائب خلقته في الأذن التي هي محل السماع، وكثرة العناية في تخليق الشيء تدل على كونه أفضل من غيره.
٤. إن البصر يرى ما يحصل على مسافات بعيدة، والسمع لا يدرك ما بعد منه على فرسخ، فكان البصر أقوى وأفضل.

٥. إن كثيراً من الأنبياء سمع كلام الله في الدنيا، واختلفوا على أن هل رآه أحد في الدنيا أم لا. وأيضا فإن موسى عليه السلام سمع كلامه من غير سبق سؤال وإلتماس، ولما سأل الرؤية قال: (لَنْ تَرَانِي) (سورة الأعراف:١٤٣)، وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع.

٦. قال ابن الانباري: كيف يكون السمع أفضل من البصر وبالبصر يحصل جمال الوجه، وبذهابه عيبه، وذهاب السمع لا يورث الانسان عيباً، والعرب تسمي العينين الكريمتين، ولا تصف السمع بمثل هذا ؟ ..(انتهى)][٢٦].

والأمر الذي نريد الوصول إليه هنا هو ليس حسم الخلاف لصالح أي من الفريقين. ولكن الذي نحن ورائه هو محاولة فهم بعض أسرار الخطاب القرآني لاستنباط ما يعيننا في مهام التربية والتعليم. والذي نرجحه هو أن الخطاب القرآني قد تنوع وفقاً لتنوع أنماط وأذواق المخاطَبين. فتارة يطرق هذا الخطاب آلية

[٢٦] المصدر السابق نفسه، مع شيء من التصرف والاختصار.

السمع لدى الإنسان، وتارة آلية الإبصار، وتارة آليات أو حواس أخرى.

وفي هذا الصدد تركز بعض العلوم التربوية والنفسية الحديثة على مراعاة وجود أنماط مختلفة من الناس، يكون لبعضهم في الأغلب دور لحاسة أو آلية إدراك معينة أكبر من أدوار الحواس أو الآليات الأخرى. ويكون هذا الدور بارزاً سواء في عملية التلقي من الآخر، أو في عملية التعبير عن الذات. وبذلك يمكن تصنيف أغلب الناس إلى ثلاثة أنماط رئيسية هي: النمط السمعي، والنمط البصري، والنمط الحِسي.

ومن الواضح في هذا التصنيف أن الجوانب الصوتية تكون هي ذات التأثير الأكبر في خطاب النمط الأول، في حين تكون القضايا الصورية هي السائدة بالنسبة للنمط الثاني. وكلامنا السابق قد شمل كلّ من هذين النمطين. أما النمط الثالث — النمط الحِسي– فصاحبه يتأثر بقدر أكبر بما يتلمسه بشكل مباشر من أجسام أو طاقة، وبما يتحسسه من مشاعر.

ورغم أن الخطاب المباشر الموجّه لهذا النمط الأخير من الناس لم يكن بنفس درجة الوضوح كما هو للنوعين الأولين، فإنه وردَ بطريقة التعريض في آيات قرآنية تختتم بقوله تعالى (يَشْعرون) أو ما شابه. وذلك لأن الشعور هو علم الشيء إذا حصل بالحس، كما قال الرازي عند قوله تعالى: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (سورة البقرة:٩)، حيث قال: [إن الشعور علم الشيء إذا حصل بالحس، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، لكنهم لتماديهم في الغفلة كالذي لا يحس][٢٧].

ومن المقابلات اللطيفة هو استخدام كلمتي (لا يَشْعُرُونَ) و(لا يَعْلَمُونَ) في وصف المنافقين في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ.) (سورة البقرة:١١-١٣)، حيث ذكر الرازي

[٢٧] المصدر السابق نفسه.

ما نصه: [إنما قال في آخر هذه الآية (لا يَعْلَمُونَ) وفيما قبلها (لا يَشْعُرُونَ) لوجهين: الأول: إن الوقوف على أن المؤمنين على الحق، وهم -أي المنافقين- على الباطل أمر عقلي نظري. وأما النفاق وما فيه من البغي يفضي إلى الفساد في الأرض فضروري جارٍ مجرى المحسوس. الثاني: إنه ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم أحسن طباقاً له، والله اعلم][٢٨].

وهكذا عندما يكون الشأن في القضايا التي يدور الخطاب القرآني حولها هو أن تلك القضايا مما ينبغي بالإنسان ذي الفطرة السليمة أن يتحسسه ويتلمسه بشكل طبيعي ومباشر، يكون التعقيب باستخدام لفظ (يَشْعرون) وما شابه، لأن الأمر متعلق بالحس، ولا يتطلب مزيد علم أو نظر.

---

[٢٨] المصدر السابق نفسه.

سَكينة الإيمان

لاشك أن أعظم النعم التي يمن بها الله تعالى على عباده هي نعمة الهداية إلى دينه القيم الإسلام، والإيمان به وبمقتضاه. ومَن يشرح الله تعالى صدره لذلك، فإنه يفتح له من أبواب الخير والسكينة والطمأنينة ورجاء المثوبة ما لا يعلمه الا الله تعالى. وفي الوقت ذاته، يغلق عنه من أبواب الشر والريبة والشك والعذاب الشيء الكثير.

وسكينة الإيمان والإخبات التي يقذفها الله تعالى في قلوب من يشاء من عباده تجعل من أولئك ممن يكادون يرون في كل شيء آية دالة على وحدانية تعالى وصدق شريعته، وتستقيم عقولهم على منهجية استدلال عجيبة في غاية البساطة وغاية الكفاءة أيضاً، فيَسلمون من كثير مما يقع به سواهم من شك وتردد في قبول الحق كُلاً أو جزءاً، رغم ما قد يمتلكه الآخرون من علوم ومعارف وطاقات عقلية كبيرة.. فينفتح لذلك المؤمن من أسرار الخلق وأنوار المعارف ما لا يدركه غيره ممن يفوقه في حصيلته

الكسبية من علوم متنوعة ومن قدرات في تلك المجالات العقلية والفكرية.

ومع كل هذا، فإن الوصول إلى ذلك المستوى من السكينة الإيمانية قد يستلزم أحيانا المرور بمراحل من إعمال العقل والفكر، والبحث والتمحيص في الآيات والدلائل، فتكون هذه المراحل محطات للترقي في منازل المعرفة الإلهية. ولذلك فإن إيراد الدلائل في القرآن قد يَرد أحيانا بتدرج من المرتبة الأرقى إلى المراتب الأدنى منها في مستويات متلقيّ الخطاب.

ومثل ذلك ورد في قوله تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.) (سورة الجاثية:٣-٥). قال الرازي في تفسيره: [إنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع: أولها (يُؤمِنون)، وثانيها (يُوقِنون)، وثالثها (يَعقِلون). وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين

بل أنتم طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل][٢٩].

وكما ذكر السعدي في تفسيره، فإن [اليقين أخص من العلم، فهو العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة][٣٠]. وبذلك فإن الخطاب القرآني في مطلع سورة الجاثية قد انتقل من مخاطبة صنف راقٍ من الناس قد غمرتهم سكينة الإيمان إلى خطاب صنف آخر دونهم، لكنه يمتلك من المؤهلات ما لو استعمله بشكل صحيح لمكّنه من الوصول إلى مراتب اليقين، نزولاً بعد ذلك إلى مرتبةٍ لا ينبغي للإنسان أن ينزل دونها وهي مرتبةُ مخاطبة غريزة العقل التي هي موجودة لدى كل مكلَّف. وهكذا تضيق مساحة دائرة الدلائل والآيات الربانية مع نزول مستوى المخاطَبين..

---

[٢٩] المصدر السابق نفسه.

[٣٠] عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

وفي هذا الأسلوب الخطابي، الذي يبدو تدرّجه كأنه معكوس من الأعلى إلى الأدنى بدلاً من أن يكون من الأدنى إلى الأعلى، فوائد لا يوفرها الأسلوب المعاكس. ولعل من أهم هذه الفوائد للمخاطب الذي هو ليس من الصنف الأرقى هو أن يعرف بدنو مرتبته، وبأن هنالك ما هو أكثر رقياً منها، فيكون ذلك أدعى لمعرفة نقصه، ولتشمير الهمة نحو الارتقاء. ويكون لنا في هذا الاستدلال على صحة أسلوب تربوي يقوم على التحفيز واستثارة الهمم من خلال عرض شيقٍ للآفاق الرحبة الراقية.

أنماط الفاعلية العقلية

مما ورد في لسان العرب في مادة (عقل) ما يلي: [العقل التثبت في الأمور، والعقل القلب، والقلب العقل، وسُمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه. وقيل العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان][٣١].

وإضافة إلى ورود صيغة الفعل من هذه الكلمة في مواضع عدة من القرآن الكريم، مثل (لِقَومٍ يَعقِلون) وما شابه، فقد وردت أيضا ألفاظ أخرى تدور حول ذات المعنى، مثل (أُولُو الأَلباب) و(لِأُولي الأَبصار) و(لِأُولي النُّهى). وهذه الألفاظ يجمعها كلها أنها تدور حول مخاطبة الذين يمتلكون مزية العقل، لحثهم على استخدامه فيما هو مؤهل للقيام به من الاستدلال على وحدانية الله تعالى، والاعتبار بآياته، والتصديق برسوله. ومع ذلك فإننا نظن أن لكل واحدة منها معنىً خاصاً أو دلالة معينة تميّزها عن

---

[٣١] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الإفريقى (ت:٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر– بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

غيرها؛ وبذلك يكون ورودها في موضع معين في القرآن الكريم مما يعين في ويدل على استنباط المعنى الخاص المتعلق بتلك اللفظة.

فإذا ما بدأنا بلفظة (لأُولِي النُّهَى)، نجد أنها وردت في قوله تعالى: (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى) (سورة طه:٥٤)، وقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى) (سورة طه:١٢٨). قال الرازي في تفسيره لهذه الآية الأخيرة: [(لأُولِي النُّهَى) أي لأهل العقول. والأقرب أن للنهية مزية للعقل، والنهى لا يقال إلا فيمن له عقل ينتهي به عن القبائح، كما أن لقولنا (أولو العزم) مزية على (أولو الحزم)][٣٢]. ولذلك فإن ورودها هنا يشير إلى تحفيز فاعلية عقلية معينة تهدف إلى منع الإنسان من الوقوع فيما لا يليق بعاقل مثله، مما قد يجعله تحت طائلة عقاب الله تعالى في الدنيا أو في الآخرة.

[٣٢] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

أما لفظة (أُولِي الأَبصَارِ)، فقد وردت في بضعة مواضع في القرآن، منها قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) (سورة الحشر:٢). قال الرازي في تفسيرها: [وفي قوله: (يا أُولِي الْأَبْصارِ) وَجْهَانِ الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ يَا أَهْلَ اللُّبِّ وَالْعَقْلِ وَالْبَصَائِرِ، وَالثَّانِي: قَالَ الفراء: (يا أُولِي الْأَبْصارِ) يَا مَنْ عَايَنَ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ الْمَذْكُورَةَ][٣٣]. وهكذا فهذه اللفظة تشير إلى فاعلية عقلية استدلالية مرتبطة بمعاينة صورية ممكنة.

وأما لفظة (أُولُو الأَلباب) أو (أُولي الأَلباب)، فقد تكررت في القرآن الكريم أكثر من سابقيتها. ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ) (سورة آل عمران:١٩٠). وقد جاء في تفسير الرازي

[٣٣] المصدر السابق نفسه.

لهذه الآية قوله: [(لِأُولي الأَلباب) أي اصحاب العقول الخالصة عن شوائب الحس والوهم. ومنه خبر (أن الله تعالى منع مني بني مدلج لصلتهم الرحم وطعنهم في ألباب الإبل)، أي خالص إبلهم وكرائمها][٣٤]. وبذلك يمكننا القول أن (أُولي الألباب) تدل على فاعلية عقلية ذات آلية متميزة تتجاوز الشوائب الحسية والتوهمات العقلية والتشوهات الفكرية، لتصل إلى استخدام أمثل للعقل بما يمكّنه من الاستفادة من آيات ودلائل ربانية كثيرة ومتنوعة. ومن هنا كان ورودها أكثر من أخواتها، لعظيم أهميتها ولشدة الحاجة إليها، والله تعالى أعلم.

[٣٤] المصدر السابق نفسه.

التذكّر طريق الشكر

قال الله تعالى: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (سورة النحل:١٣)؛ وقد علّق الآلوسي عليها بالقول: [وختم الآية بالتذكر إما لما في الحواشي الشهابية من أنها كالفذلكة لما قبلها، وإما للإشارة إلى أن الأمر ظاهر جداً غير محتاج إلى تذكر ما عسى أن يغفل عنه من العلوم الضرورية. وقال بعضهم يذّكّرون أن اختلاف طبائع ما ذكر وهيآته وأشكاله مع إتحاد مادته يدل على الفاعل الحكيم المختار، وهو ظاهر في أن ما ذكر دليل على إثبات وجود الصانع كما أنه دليل على وحدانيته، وهو الذي إليه الإمام -أي الرازي- واقتدى به غيره][٣٥]. ونحن نذهب أيضاً إلى رأي الرازي الذي نقله عنه الآلوسي هنا. ويؤيد ذلك ما ذكر صاحب (مدارج السالكين) من أن [التَذكّر تَفعّل من الذِكر، وهو ضد النسيان، وهو حضور صورة المذكور العلمية في

---

[٣٥] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

القلب. واختير له بناء التفعّل لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصّر والتفهّم والتعلّم][٣٦].

وقد نقل صاحب المدارج عن الحسن البصري قوله [ما زال أهل العلم يعودون بالتذكّر على التفكّر، وبالتفكّر على التذكّر، ويناطقون القلوب حتى نطقتْ][٣٧]. والتذكر هو من خواص أولي الألباب، لقوله تعالى: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ) (سورة الرعد:١٩)، وقوله أيضاً: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ) (سورة البقرة:٢٦٩).

وفي تفسيره لقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة الأعراف:٥٧)، قال الآلوسي: [وأخرج غير

---

[٣٦] الإمام ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت:٧٥١هـ): مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

[٣٧] كما ورد في المصدر السابق.

واحد عن مجاهد أنه إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى، أمطر السماء حتى تشقق عنهم الأرض، ثم يرسل سبحانه الأرواح، فتعود كل روح إلى جسدها. فكذلك يحيي الله تعالى الموتى بالمطر كإحيائه الأرض. وقيل إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء من غير اعتبار كيفية، فيجب الإيمان به، ولا يلزمنا البحث عن الكيفية، ويفعل الله سبحانه ما يشاء. (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فتعلمون أن من قدِر على ذلك، فهو قادرٌ على هذا من غير شبهة. والأصل (تَتَذكّرون) فطحت إحدى التائين][٣٨].

وفي تفسيره للآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) (سورة الأعراف:٥٨) قال الآلوسي: [وقال الطيبي: ذكر (لِقَوْمٍ يَشْكُرُون) بعد (لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ) من باب الترقي، لأن من تذكر آلاء الله تعالى عَرَف

[٣٨] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

حق النعمة فشكر][٣٩].. وهكذا يكون تحفيز الفاعلية العقلية لأولي الألباب في منزلة التذكر هو واحد من أنجع الطرق لمعرفة نعم الله تعالى وآياته، وبما يمكّن الإنسان لأن يكون من الشاكرين حقاً.

[٣٩] المصدر السابق نفسه.

استقصاء التوَسُّم

في تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) (سورة الحجر:٧٥)، يقول الإمام الرازي: [يقال: توسمتُ في فلان خيراً، أي رأيتُ فيه أثراً منه وتفرسته فيه. واختلفت عبارات المفسرين في تفسير المتوسّمين، فقيل: المتفرسين، وقيل: الناظرين، وقيل: المتفكرين.. قال الزجاج: حقيقة المتوسّمين في اللغة: المتثبّتون في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته؛ والمتوسّم: الناظر في الصفة الدالة][٤٠].

ويتوسّع الآلوسي في ذلك قائلاً: [وفي البحر: التوسّم تفعّل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب، وقال ثعلب: التوسّم النظر من القرن إلى القدم واستقصاء وجوه التعريف، قال الشاعر:

أوَ كلّما وردتْ عكاظَ قبيلةٌ بَعثوا إليّ عريفَهم يَتوسّم

[٤٠] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

وذكر أن أصله التثبت والتفكر مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة محمّاة في جلد البعير أو غيره، ويقال: توسّمتُ فيه خيراً، أي ظهرتْ علاماته لي منه، قال عبد الله بن رواحة في رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إني توسّمتُ فيكَ الخيرَ أعرفُه واللهُ يعلمُ أني ثابتُ البصر

والجار والمجرور في موضع الصفة (لَآياتٍ) أو متعلق به، وهذه الآية -على ما قال الجلال السيوطي- أصل في الفراسة، فقد أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعا: «اتقوا فراسةَ المؤمن فإنهُ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالى» ثم قرأ الآية. وكان بعض المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية][٤١].

وإذا ما أردنا أن نبحث عن وجه الفراسة والتوسّم في هذه الآية فعلينا الرجوع إلى سياقها القرآني. وعند ذلك نجد أنها وردت تعقيباً على عقاب الله تعالى الذي أحلّه بقوم لوط، بعد تصوير

---

[٤١] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

بالغ لحالهم قبيل وقوع ذلك العذاب. وقد وصف صاحب (في ظلال القرآن) حالتهم تلك بما يلي: [والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة. يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية. هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر -فوق المنكر ذاته- شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه، لولا أنه وقع.

فقد يشذ فرد مريض، فيتوارى بشذوذه، ويتخفى بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس. وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية، بل حين تكون شرعية. وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك. بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها، ويتجمهرون

لتحصيلها، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير][٤٢]..

والآن وبعد مضي بضعة عقود على الزمن الذي كُتبتْ فيه الكلمات الأخيرة، بدأتْ نظائر لذلك الارتكاس بالظهور في مجتمعات تدعي الحضارة والتمدن، فأصبح للشذوذ الجنسي والفاحشة المعلنة أنصار يتفاخرون بالدعاية لها، وقوانين تُشرع لها وتحمي أصحابها، وبدأت قوى الظلام سعيها الحثيث لفرض جو عالمي اجتماعي يقبل بتلك الحالات الممعنة في السفالة والشذوذ، بل ويرعاها.

إن التفرّس في هذه الآية يشير إلى أن الحق جلّ وعلا يريد أن يبيّن لنا العلامة التي من خلالها نستدل على قرب حلول عذاب الله تعالى بقوم أو أمة من الأمم. وكل ذلك يكون بموجب سُنة كونية جعلها الله تعالى في أصل نظام هذا الكون. والعلامة المقصودة هنا هي وصول تلك الأمة إلى مرحلة من الظلم

---

[٤٢] سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، دار الشروق- بيروت، ١٩٨٥م.

والفساد والطغيان الفاضح، والمجاهرة بذلك، والدعوة إليه، ويكون كل هذا بشكل غير مسبوق.

وما أحوجنا اليوم إلى تلك الفراسة، لأن الطغيان حين يبلغ ذروته، يظن الواهن والضعيف أن المعركة أو الصراع قد حسم لصالح الظالم أو لمصلحة الباطل.. ولكن الفراسة الإيمانية الدقيقة تشير إلى عكس ذلك تماماً، حيث أن الظالم في تلك الذروة -أو ذلك الحضيض- يكون أقرب ما يكون إلى نهايته الوشيكة. وما هو إلا رباط ساعة ومصابرتها، ثم يحين موعد الفجر بإذن الله تعالى.

ذرى الإحسان

قال الله تعالى: (وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (سورة البقرة: ١٩٥). وقد جاء في تفسير الرازي لها ما ملخصه: [اختلفوا في أن المحسن مشتق من ماذا.. وفيه وجهان: الأول: أنه مشتق من فعل الحسَن، وأنه كثر استعماله فيمن ينفع غيره بنفع حَسَن، والثاني: أنه مشتق من الإحسان، ففاعل الحسَن لا يوصف بكونه محسنا إلا إذا كان فعله حسناً وإحساناً نافعاً][٤٣].

ونحن نميل إلى حمل كلمة (المحسِنينَ) التي وردت في مواضع قرآنية عدة على الوجه الثاني الذي ذكره الرازي، لأنه يشمل الوجه الأول ضمناً. وبذلك فإننا نستطيع، ومن خلال استقراء الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإحسان والمحسنين، أن نحصل على مجموعة من الصفات والأفعال التي تتناسب مع مرتبة الإحسان وأهلها. ومن ذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

[٤٣] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (سورة آل عمران:١٣٤)، حيث ذكر الآلوسي في تفسيرها الآتي: [وعبّر عنهم بالمحسنين على ما قيل إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي. وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بـ (أن تبعدَ اللهَ كأنكَ تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنهُ يراكَ)][٤٤].

ومن الطائف في هذا الباب أننا نجد أن الله تعالى في خطابه القرآني للمحسنين، لم يستخدم صيغةً مثل (إن في ذلك لآيات للمحسنين) أو ما شابه، ولكنه استخدم صيغاً أخرى تفيد بأنه يحب المحسنين، وأنه معهم، وأنه لن يضيع أجورهم. والسبب في ذلك كما نظن –والله تعالى أعلم– هو أن مرتبة الإحسان لا يوصف بها إلا من بلغ شأناً عالياً في تلقّيه عن الله تعالى وعن رسوله، مما رفعه في مقامات الإيمان مسافات ودرجات لايعلمها

[٤٤] الإمام شهاب الدين الحسيني الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

إلا الله تعالى. وهذا ماجعل الخطاب القرآني مع عبد مثله خطاباً مميَّزاً يركّز على السلوكيات والصفات التي تنبغي لصاحب الإحسان هذا لكي يستمر في ترقيه..

قواعد الارتقاء الخطابي

قبل وصف الخطوط العامة للمنهج التربوي القرآني الذي نقترحه ونتبناه، والفعاليات العملية التي يمكن استخدامها لتطوير قدرات المتلقين، فإنه يجدر بنا أن نبدأ بتلخيص أهم القواعد المستنبطة في المواضيع التي تقدمت من كتابنا هذا والتي مثّلتْ الجزء النظري التأصيلي من الكتاب.

ونوجز هنا ما تناثر في معظم صفحات ما تقدم من هذا الكتاب، وذلك على شكل قواعد ظنية مستقرأة من مجمل الآيات القرآنية التي تم استعراضها آنفا. وهذه القواعد لا يقصد بها الإحاطة والشمول وإنما نرجو منها أن تكون كافية للتأسيس لبرنامج التدريب التربوي الذي نحن بصدده.

كما أن هذه القواعد قد لا تكون جميعها تامة الإطراد، إلا أننا نظن أنها راجحة في الأعم الأغلب، وبهذا فهي كافية لنا للبناء عليها. ويمكن إجمال هذه القواعد المستنبطة كما يلي:

١. يمكن تصنيف الكثير من الآيات والدلائل التي ترد في القرآن الكريم إلى الأقسام الآتية:

أ– ما يعرف منها بغريزة العقل الموجودة لدى كل مكلف؛ وهذا النوع يكون ظاهراً في دلالته، وغالباً ما يتم التعقيب عليه بكلمة (يعقلون) وما شابه.

ب– ما لا يكفي فيه مجرد العقل، بل هو يحتاج إلى إعمال العقل فيه بعملية التفكر، وذلك لأن دلالة هذا النوع أقل ظهوراً من السابق، فيبقى التفكر فيه مطلوب لأجل الوصول إلى حقيقته؛ وهذا النوع غالباً ما يتم استعمال كلمة (يتفكرون) أو ما شابه معه.

ت– ما لا تكفي فيه عملية التفكر لوحدها، بل هو بحاجة إلى مرشد يرشد إليه لكي يتم فهم المراد، وفي بعض الأحيان قد يحتاج هذا الى مرشد بغير فكرة، عندما يكون الأمر متعلقا بشيء خارج نطاق إمكانات العقل البشري؛ وفي أكثر الأحيان يتم ختم الآيات من هذا النوع باستخدام (يسمعون) وما شابه.

ث– ما يحتاج عموم الناس لإدراكه إلى ضرب الأمثلة الحسية لتقريب المقصود إلى الأذهان؛ وهذا النوع يشمل الكثير من الأمثال التي ضربها الله تعالى في القرآن.

٢. عندما يذكر الله تعالى آياته ودلائله الأرضية، فغالباً ما يكون عقبها استخدام (يتفكرون)، لأن إقامة الحجة الدامغة فيها يحتاج إلى مزيد تأمل وتفكير.

٣. يكون التدرج في إيراد الأدلة في القرآن الكريم من الأقل ظهوراً إلى الأكثر منها وضوحاً، ليقترب شيئاً فشيئاً من مواجهة الحقيقة التي ينبغي لكل عاقل الإذغان لها.

٤. هنالك مستويان رئيسيان في الأقل لإدراك بعض الدلائل التي ترد في القرآن الكريم والتي يكون التعقيب عليها باستخدام كلمة (يعقلون) وما شابه؛ مستوى أولي يقابل العلم الحدسي، وهذا هو بمقدور كل عاقل، أما المستوى الآخر فهو يقابل العلم الفكري الدقيق، وهذا يعقله العالِم. وهكذا يمكن للجميع أن ينتفعوا بمثل هذه الآيات.

٥. عندما تكون الاستفادة من دليل معين تحتاج إلى امتلاك المتلقي قدراً من العلم المكتسب فيما يخص ذلك الشأن، يكون التعقيب المناسب هو باستخدام (يعلمون) وما شابه، وعند ذاك فإن هذا يشير إلى أن مجرد أهلية الفهم لدى الشخص هي ليست كافية لوحدها في إدراك المقصود، بل لا بد من الاكتساب ولو بأدنى قدر.

٦. يتم استخدام كلمة (يفقهون) في التعقيب على الآيات والدلائل التي تحتاج إلى فطنة وتدقيق نظر أكثر من غيرها من ناحية، أو التي يحتاج المرء لإدراكها إلى مَلَكَة الفهم دون تكلف أو اكتساب من ناحية أخرى؛ فيكفي توفر أحد الجانبين لدى المتلقي لحصول المقصود.

٧. يوجد هناك أنماط رئيسية ثلاثة للمتلقين في مدى تأثرهم بنوع ووسيلة الخطاب الموجه إليهم. وهذه الأنماط هي:

أ- النمط السمعي؛ الذي تكون فيه الجوانب الصوتية التي تحتاج إلى السماع هي العامل الأكبر دوراً في عملية التلقي، وغالباً ما تستخدم كلمة (يسمعون)

وما شابه في التعقيب على الآيات التي تلائم أكثر من غيرها هذا النوع من المتلقين.

ب- النمط البصري؛ وفيه تكون للجوانب الصورية والمشاهد البصرية التأثير الأعظم في التلقي، وتستخدم كلمة (يبصرون) وما شابه غالباً في التعقيب على الآيات التي تناسب هذا النوع من المتلقين بصورة أكبر من سواها.

ت- النمط الحسي؛ وهنا يكون الدور الأكبر هو لما يمكن للمرء أن يتلمسه من أشياء، أو لما يتحسسه من مشاعر، والتعقيب المناسب لنوع الخطاب الذي يتلائم مع هذا النمط هو كلمة (يشعرون) وما شابه.

٨. يكون الخطاب القرآني في بعض الأحيان متدرجاً من مراتب الرقي الإيماني إلى مراتب دونها في درجة اليقين.. والقرآن بذلك يضع صاحب النقص أمام نقصه، لعله يشحذ همته للارتقاء إن كان من أصحاب الهمم التي لا ترضى بالدون من الأشياء.

٩. يمكن للعقل أن يعمل وفقاً لأنماط متعددة وآليات متداخلة، وهذه الأنماط والآليات تشترك في جوانب، وتمتاز عن بعضها في جوانب أخرى. وقد شخّص لنا القرآن بعضاً منها، و كما يلي:

أ– عندما يتحدث القرآن عن (أولي النهى) فهو يشير إلى نمط من الناس يمتلكون آلية أو فاعلية عقلية تجنب الإنسان من الوقوع فيما لا يليق به من القبائح.

ب– وعندما يذكر (أولي الأبصار) فهو يشير إلى صنف من الناس لهم فاعلية عقلية استدلالية ترتبط بمعاينة أو مشاهدَة صورية ممكنة.

ت– وعندما يتحدث عن (أولي الألباب) فهو يتكلم عن أناس ذوي فاعلية عقلية متميزة قادرة على تجاوز الشوائب والأوهام لتصل إلى الحقائق الخالصة؛ وهذا النمط من الفاعلية العقلية تشتد الحاجة إليه لدى أكثر الناس لينتفعوا بآيات الله تعالى.

١٠. إن من أبلغ سبل الترقي في مقامات القلوب هو المزواجة بين عمليتي التذكر لنعم الله تعالى وآلائه، والتفكر فيها. وذلك طريق واسع للوصول إلى منزلة الشكر ودرجة الشاكرين.

١١. إن التوسم أو النظر المتفرس في علامات الأشياء هو أمر مطلوب لأجل الاستدلال على عواقب الأمور. وتزداد أهمية هذا الأمر في اللحظات التأريخية التي تسبق المنعطفات الكبرى التي تمر بها البشرية، وذلك عندما تفشل كثير من الآليات الفكرية والتخطيطية الأخرى في استكشاف الحقائق قريبة الوقوع بالوضوح الكافي. وكل هذا يؤكد أصالة الإستشراف والتخطيط للمستقبل وضرورة النظر في المآلات.

١٢. إن مرتبة الإحسان هي مرتبة سامية دُعي المسلمون للوصول إليها، غير أن الوصول إليها أمر عزيز، وهو يسير لمن يسره الله تعالى له. وللمحسنين صفات وسلوكيات يُعرفون بها، ذكر أمهاتها في القرآن الكريم. والإحسان في

ذاته يتضمن منازل عديدة متفاوتة. وللمحسنين عموماً نمط خاص من الخطاب القرآني الذي يؤكد خصوصيتهم ويتناسب معها.

ملامح المنهج التربوي المقترح

نذكر هنا أهم السمات والملامح للمنهج التربوي المقترح، وكالآتي:

١. **قرآنية المنهج:** إن الصفة القرآنية بمعناها العام هي الصفة التي ينبغي لكل منهج إسلامي أن يتسم بها من حيث أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للأحكام والتشريع. وما نقصده هنا بهذه السمة يذهب إلى مدى أكثر تفصيلاً، وهو أننا نستفيد بشكل مباشر من الأسلوب القرآني في خطاب الناس، من حيث أنه يتعامل مع الأنماط والطبائع المختلفة للناس، إضافة إلى درجات النضج المتفاوتة التي يمر بها الفرد أو تمر بها المجتمعات خلال المراحل المختلفة؛ وبذلك نستخدم المعطيات والدلائل التي تناسب كل نوع أو نمط أو حالة كما استخدمها القرآن الكريم.

٢. **فاعلية المنهج وقدرته على الاستيعاب:** فهذا المنهج يمكن أن يسهم (بإذن الله تعالى) في نضج وتطوير المتلقين بصورة سريعة قياساً إلى الأساليب النمطية المعتادة، كما أنه

يمكن أن يوجه إلى أعداد أكبر من المتلقين نسبة إلى ما هو معتاد في مناهج التربية الخاصة؛ بل لعله يمكن أن يُعد من أساليب التربية الجماهيرية الواسعة في أجزاء مهمة منه. وكل ذلك نابع من استمداده من القرآن الكريم.

٣. **المعاصرة:** يعتمد هذا البرنامج في تنفيذ الكثير من أجزائه على استخدام تقنيات الحاسوب وأساليب العرض السمعي- البصري، وهذه التقنيات توفر ميزات عدة لمستخدميها منها السهولة واختصار الوقت والجهد وتقليل التكاليف، كما أنها تفوق مجرد أساليب المحاضرة أو العرض الشفوي والمطالعة المعتادة، نتيجة لتنوع أساليب عرض المعلومات وإظهار المؤثرات الخاصة المرافقة.

فعندما يتحدث القرآن الكريم عن ظاهرة معينة كإنزال المطر أو نمو النبات أو حركة الأفلاك أو غير ذلك، فيمكن إعداد برنامج عرض صغير يستمر لدقائق قليلة، يحتوى على آية قرآنية أو أكثر لها صلة بالموضوع، وفيه صور متحركة أو ثابتة مع تعليقات مناسبة، ويدمَج كل هذا

ويقدَّم بصورة شيقة كوحدة منسجمة. ومثل برنامج العرض هذا الذي يتعلق بقضية محددة ومميزة سنسميه "وحدة العرض".

إن وحدات العرض هذه قد يكون لا غنى للمنهج عنها، خصوصاً في الظواهر والدلائل التي يصعب مراقبتها بشكل مباشر. ومع ذلك فإننا نفضل إبقاء بعض أجزاء المنهج التدريبي معتمدة على المشاهدة والمراقبة المباشرة في الطبيعة أو المختبر، وحسب الإمكانيات المتوفرة، وهذا يضفي على المنهج روحية لا يمكن لوسائل العرض السمعي-البصري وحدها توفيرها.

٤. **مرونة التصميم والتنفيذ:** هذا البرنامج التربوي التدريبي مصمم على أساس وحدات العرض الحاسوبية، والتي يستعاض عن بعضها بوحدات المعاينة والمراقبة المباشرة، وحسب الإمكانيات كما ذكرنا آنفا. ويمكن ترتيب تسلسل عرض الوحدات والتداخل فيما بينها حسب الهدف الخاص بكل فقرة من فقرات المنهج. فمثلاً إذا ما

جئنا إلى الآيات التي ختمها الله تعالى بكلمة (يسمعون)، فإننا نستطيع أن نجمعها مع بعضها[٤٥]، بحيث نكوّن عدداً من وحدات العرض التي تتضمن الموضوعات التي ذُكرت في هذه الآيات. ويمكننا أن نتحكم بعدد وحدات العرض اللازمة التي تتناسب مع (قوم يسمعون) حسب وضع البرنامج ونوع المتلقين. وهذه المرونة تتعلق بالبناء الداخلي لوحدات العرض التي تشكل موضوعاً واحداً.

وهناك نوع آخر من المرونة الخارجية التي تتيح استخدام الوحدات المكونة لموضوع واحد بطرق مختلفة، وفقاً لهدف البرنامج المطبق في حالة معينة. فوحدات موضوع (قوم يسمعون) على سبيل المثال يمكن أن تستخدم وفقاً لعلاقتها بموضوعات العقل والتفكير من ناحية، أو وفقاً

[٤٥] لقد أعددنا ملحقاً لهذا الكتاب يتضمن مجاميع من الآيات القرآنية التي يمكن الاستفادة منها في إعداد وحدات العرض الحاسوبي؛ وهذه الآيات مصنفة وفقاً لنوع المواضيع والدلائل التي تحملها، وكما تم تفصيله في هذا الكتاب. ومع ذلك فلن نقوم بنشر هذا الملحق مع الكتاب لأننا لا نظن أنه جزء أساسي منه، ولأننا لا نريد زيادة حجم الكتاب دون داعٍ موجب لذلك (المؤلف).

لعلاقتها مع نمط (يبصرون) من ناحية أخرى، وكما ذكرنا في ملخص القواعد. وللمساعدة في بناء وحدات العرض التي يتضمنها موضوع ما، فقد جمعنا الآيات المهمة في كل من هذه المواضيع وجعلناها في ملحق. والمقصود بكلمة موضوع هنا هو كل نمط أو صنف من الناس أو مرحلة في مراحل النضج التي يمكن أن يمروا بها، والتي وصفها القرآن بمثل (قوم يتفكرون) أو (قوم يسمعون) أو (يشعرون) أو (أولي النهى) أو نحو ذلك من ألفاظ، ووفقاً لما أوردناه سابقاً.

٥. **إمكانية استخدامه لمستويات وأعداد مختلفة من المتلقين**: هناك العديد من وحدات العرض التي يمكن إعداد كل واحدة منها بنسختين في الأقل، حيث تعالج كل نسخة منها الظواهر أو الدلائل المتعلقة بها بعمق وتفصيل يختلف عن النسخة الأخرى. وكما مر معنا سابقاً بالنسبة للآيات التي تخص (قوم يعقلون) على سبيل المثال، فقد رأينا كيف أن هناك أكثر من مستوى لفهمها، وبالتالي

الانتفاع بها؛ مستوى يناسب كل من يمتلك غريزة العقل؛ ومستوى آخر يحتاج إلى علم كسبي لإدراكه، لذا فهو متاح لعدد أقل من الناس. وهكذا تُستخدم كل نسخة من وحدة العرض مع نوع المتلقين المناسب لها.

٦. **القابلية للتطوير**: إن كل ما ذكر هنا لا يمكن أن نعده تغطية شاملة أو كافية لكل جوانب موضوع البحث، فنحن ركزنا على الملامح الأساسية وعلى بعض التفاصيل بما هو متاح من وقت وجهد. ولا شك أن المنهج التربوي الذي نحن بصدده يمكن له أن يُطوَّر بشكل كبير ليشمل جوانب وتفصيلات أخرى كثيرة ومهمة، وهذا ما يؤدي إلى إنضاجه وزيادة فاعليته. وكل جهد مضاف في هذا الإتجاه هو أمر أكثر من مرحب به.

من التصنيفات القرآنية في الخطاب

والآن نوضح جانباً من التصنيفات والتدرجات التي استخدمها القرآن في مخاطبة الناس. وقد سبق لنا ذكر القواعد المتعلقة بهذه التصنيفات آنفاً، لكننا نريد هنا أن نزيد ذلك وضوحاً من خلال تمثيلها بمخططات مبسطة، لتكون دليلاً لتصميم جوانب من المنهج التربوي التدريبي، وذلك من خلال جمع وحدات العرض المناسبة مع بعضها ضمن الموضوع الواحد، ومن ثم عرض المواضيع المختلفة وفقا للمخططات المذكورة هنا.

وهذه المخططات هي أمثلة توضح كيفية تدرج القرآن الكريم وكيفية تعامله مع أصناف المتلقين. واستعمالها يسهم في ترسيخ المقصود في ذهن المتلقي، كونها تختزل أصل الفكرة وتعبر عنه بشكل واضح وبسيط. ولا شك أن المزيد من استقراء آيات القرآن الكريم سوف يكشف لنا عن تصنيفات وتدرجات خطابية أخرى. وفي الصفحات اللاحقة تمثيل لأهم التصنيفات القرآنية المستنبطة.

التصنيف الأول– تدرج زيادة صعوبة إدراك الدلائل والآيات نسبة لقدرات المتلقين (من الأسفل إلى الأعلى):

التصنيف الثاني– التدرج في زيادة حجية الدليل (من الأسفل إلى الأعلى):

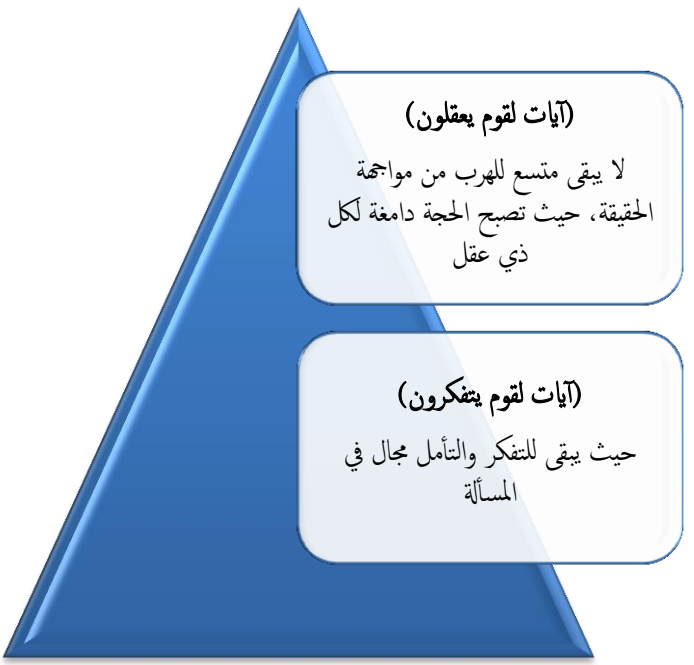

التصنيف الثالث– تفاوت مستويات الفهم وفقاً للقدرات المكتسبة للمتلقين (من الأسفل إلى الأعلى):

التصنيف الرابع– تنوع الآيات لتناسب تنوع قابليات المتلقين:

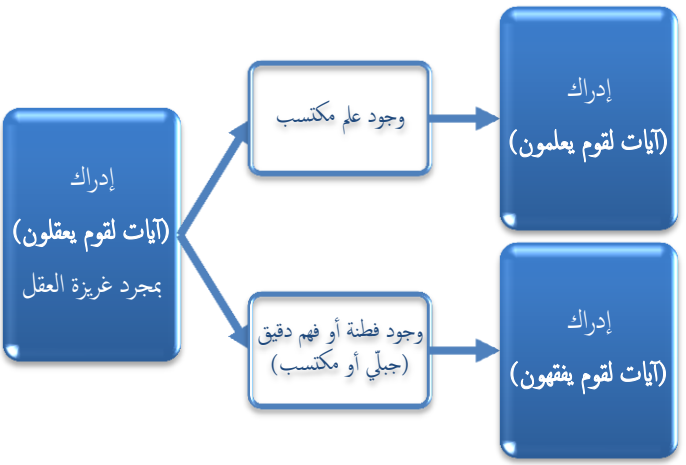

التصنيف الخامس– تنوع أنماط الناس بحسب تفضيلاتهم وتأثرهم بأسلوب الخطاب:

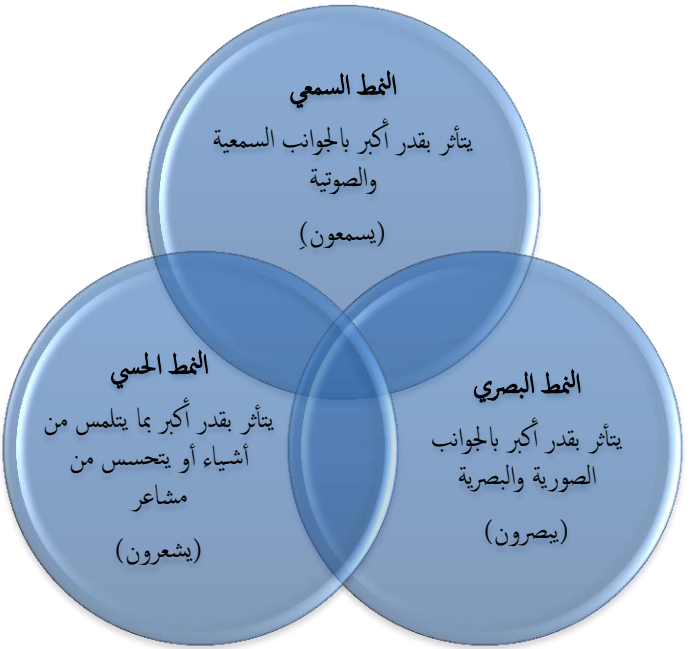

التصنيف السادس– تدرج الخطاب من المستوى الأرقى إلى الذي دونه (من الأعلى إلى الأسفل):

التصنيف السابع– أنماط الفاعلية العقلية:

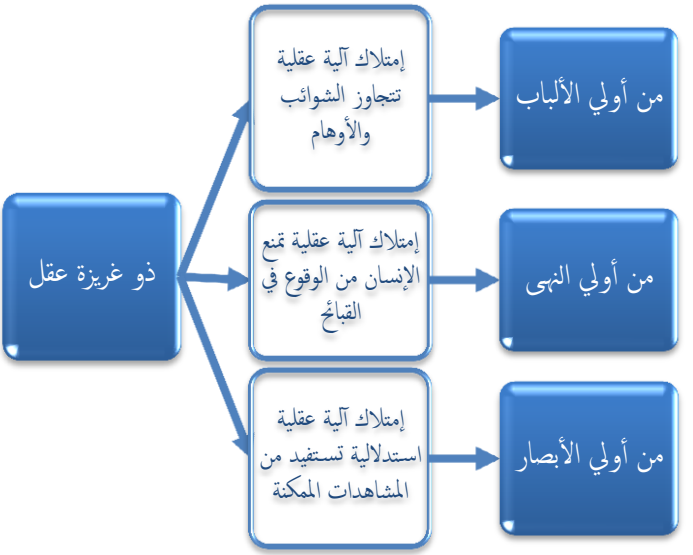

التصنيف الثامن– الارتقاء إلى منازل الشاكرين:

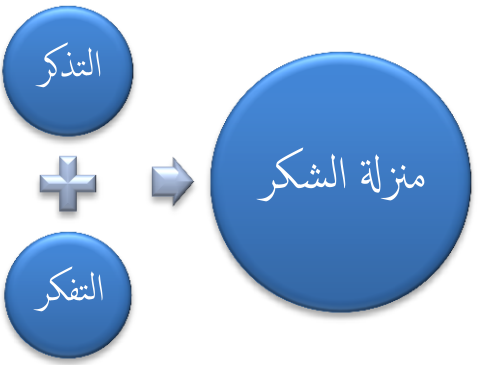

التصنيف التاسع– قمم الإحسان:

التصنيف العاشر– صدق التوسم:

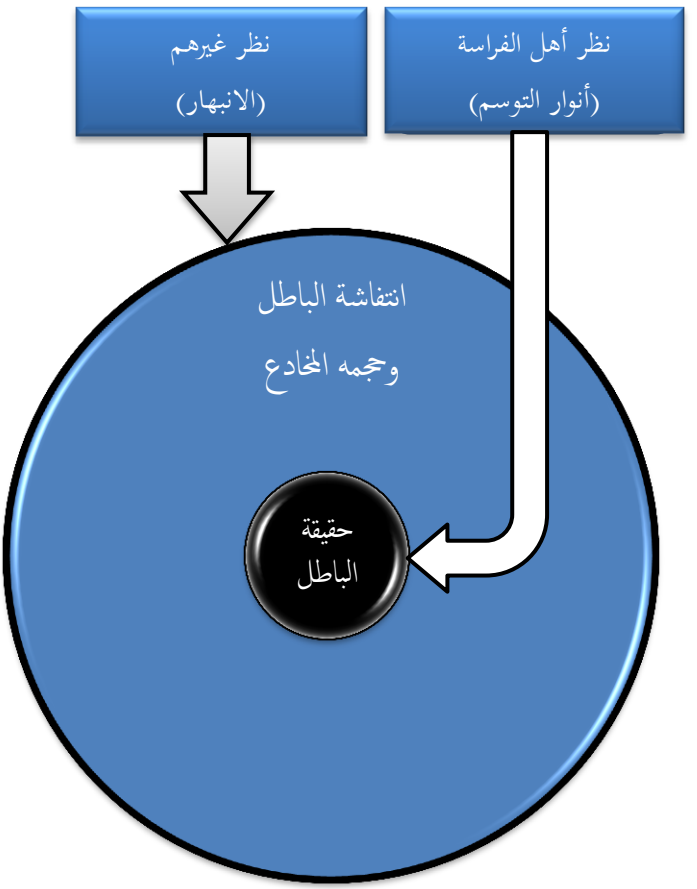

نماذج من الفعاليات والتمارين العملية

إضافة إلى أن التصنيفات القرآنية التي ذكرناها في الفقرة السابقة تمثل بذاتها تمارين عملية جاهزة يمكن تنفيذها من خلال استخدام وحدات العرض المشار إليه آنفاً، فإننا نذكر هنا عدداً آخر من الفعاليات التدريبية المتفرقة ذات الصلة الوثيقة بموضوعات البحث والتي تشكل إغنائات مهمة لمنهجنا التربوي المقترح.

والفعاليات أو التمارين المذكورة هنا يمكن أن تنفذ بنفس أسلوب التمارين السابقة، أي أسلوب وحدات العرض الحاسوبية أو أسلوب المعاينة والمراقبة المباشرة. وكل تمرين منها على حدة يمكن أن يؤدي غرضاً تربوياص معيناً، كما أنها بمجموعها تسهم في بناء الشخصية القرآنية للمتلقي.

الفعالية الأولى– تشتت القلوب وأثره:

وهي مبنية على قوله تعالى: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً

وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ) (سورة الحشر:١٤)، والذي جاء في وصف حال الذين كفروا من أهل الكتاب. ومما ذكره الرازي في تفسيره لها هو: [إن هؤلاء لا يعقلون أن تشتيت القلوب مما يوهن قواهم][٤٦]. ونستطيع أن نبين هذا بشكل وصفي أو عملي، وحسب نوع المتلقين، من خلال مَثَل فريق كرة القدم.

فلنتصور كيف يكون حال فريق لكرة القدم (أو لغيرها من الرياضيات) وكل فرد من أفراده يريد أن يسجل هو الهدف، ولا يحب أن يسجل أحدا آخر من زملائه هدفاً لفريقه، لكي لا ينسب الفضل لغيره! فريق كهذا حاله كيف يمكن أن يفوز، ولو كان لاعبوه مهرة وأقوياء؟.. ويمكن مناقشة هذه الحالة، كما يمكن أن تنفذ فعليا على شكل لعبة لكرة القدم. وبعد ذلك نستطيع أن نربط الموضوع بالعمل الجماعي، والفرق فيه بين المسلمين وبين غيرهم، على مستوى الفرض ومستوى الواقع.

---

[٤٦] الإمام فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).

الفعالية الثانية– الضعف بعد القوة:

وهي مبنية على قوله تعالى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ) (سورة يس:٦٨) وأمثاله في القرآن الكريم؛ حيث يمكن إعداد وحدة عرض حاسوبية تحتوي على فلم أو صور تمثل مراحل نمو الإنسان ومن ثم هرمه وانقلاب حاله إلى الضعف والهزال بعد القوة والتجبر. ويمكن أن يُضرب المثل بحال بعض الجبابرة والطواغيت الذين بلغوا أرذل العمر وكيف أصبحت حالتهم عند ذاك.

ومثل حال الأفراد يمكن أن يكون حال الدول والنظم التي تحارب دين الله تعالى، وكما فصّل ذلك ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع وفلاسفة الحضارة في كيفية أن الدول تنمو وتقوى ثم تضعف وتهرم وتزول، كالإنسان تماماً. فيمكن إعداد وحدات عرض تخص مختلف الدول والأمبراطوريات التي شهدها العالم، وكيف ظهرت ونمت ثم أفلت وزالت.

الفعالية الثالثة– مرتكز التوحيد:

وهو مثل قرآني واضح في قضية (يعقلون) حيث يستطيع كل شخص إدراكه بغريزة العقل، وهو من قوله تعالى: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة الروم:٢٨). وقد علق المفسرون على هذا المثل وأوضحوا أوجه الاستدلال فيه، ويمكن الاطلاع على ما ذكره مؤلف (في ظلال القرآن)[٤٧] كنموذج لذلك.

الفعالية الرابعة– النوم والموت:

حيث أن هناك مجالاً كبيراً للتفكير في هاتين القضيتين من حيث اشتراكهما ببعض الوجوه واختلافهما بوجوه أخرى. وهذه الفعالية مبنية على قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ

---

[٤٧] سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، دار الشروق– بيروت، ١٩٨٥م.

وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الزمر:٤٢). والتفكر في هذا الأمر يقودنا إلى أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا بتدبير القدير الحكيم الخبير. ويمكن في هذا الصدد إعداد وحدة عرض تحتوي على معلومات طبية عن النوم، وطبيعة ما يسود الدماغ وبقية الجسم في أثنائه، مع مقارنة ذلك بحالة اليقظة وبحالة الموت.

الفعالية الخامسة– الفراسة:

تستند هذه الفعالية إلى ما ذكرناه سابقاً في موضوع (استقصاء التوسم)، وذلك في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) (سورة الحجر:٧٥). ويمكن أن يتم إعداد وحدة عرض (أو أكثر) عن بعض الدول التي تسمى بالقوى العظمى في عالم اليوم تتناول نشأتها وتطورها، وما وصلت إليه من تقدم في مجالات مختلفة، وما فيها من محاسن ومساؤي.

ويُطلب بعد ذلك من المتدربين (المتلقين) أن يحددوا أهم النقاط (علامات التوسم) التي يمكن أن تكون سببا لأنهيار قريب في تلك القوى. ويمكن مقارنة هذا بما حدث لقوى طاغية سابقة،

وذلك بإعداد وحدات عرض حاسوبي تخص كل منها، عن طريق معلومات موضوعية موثقة.

الفعالية السادسة– الموضوعية والإنصاف في التعامل مع الآخر:

لقد صد المشركون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن دعوة الحق التي جاء بها، فكانوا صمّاً وعمياً إزاءها، وكما وصفهم الله تعالى في مواضع عديدة في محكم التنزيل، ومنها قوله جلّ وعلا: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ.) (سورة يونس:٤٢-٤٣). وفي هذه الفعالية، نريد أن ننبه المتدربين إلى عدم الوقوع فيما وقع فيه المشركون من عدم سماعهم للحق أو رؤيتهم له بسبب بغضهم لقائله (مع فارق القياس)؛ حيث أنه من الحري بنا كمسلمين أن لا نرفض كل ما يقوله الآخر أو يفعله فقط لأنه يخالفنا في المنهج أو الاعتقاد، كما لا يجدر بنا أن ننكر إيجابياته لذات السبب.

ويمكن لنا هنا أن نعد وحدة عرض حاسوبية تحتوي على أقوال وأفعال لأناس من المخالفين، ثم نطلب من المتدربين تمييز الحق من الباطل فيها، وإيجاد نقاط مشتركة للتفاهم. كما يمكن لنا أن نكتفي بمجرد توزيع مقال أو كراس لمؤلف من جهة أخرى وإجراء نفس التقويم له.

الفعالية السابعة– نبات البلد الطيب:

وهذه الفعالية توضح حال الشاكرين لنعم الله تعالى عليهم وأعظمها نعمة الهداية لهذا الدين. وهو مبني على قوله تعالى: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) (سورة الأعراف: ٥٨)، وقد ذكر الآلوسي في تفسيره لهذه الآية حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم احتوى على تشبيه تفصيلي بليغ لشكر نعمة الاسلام، وهو الحديث الذي في الصحيحين وفي غيرهما عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ

وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»..

وهكذا ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بثلاثة أنواع من الأراضي:

١. أرض طيبة تقبل الماء فتنبت الكلأ والعشب.
٢. أرض أجادب لا تنبت لكنها تمسك الماء وتحفظه فينفع الله تعالى به الناس بعد ذلك.
٣. قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ.

ويقابل أنواع الأراضي هذه ثلاثة أصناف من الناس. وبعد توضيح ووصف هذه الأنواع من الاراضي وما يقابلها من أصناف الناس، يوضَّح للمتدرب كيف وأين هو موقعه كمسلم يؤدي واجبه في هذا العالم.

الخاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث استنطاق المنهجية القرآنية في مخاطبة الناس وفقاً لأنماطهم وأصنافهم المختلفة ووفقاً لمراحل النضج التي يمرون بها، وبالتالي محاولة الاستفادة من هذه المنهجية في رسم الملامح الأساسية لبرنامج تربوي تدريبي يتماشى مع متطلبات الزمن الحاضر، والتي من أهمها القدرة على الارتقاء بمستوى الفهم والسلوك لدى أكبر عدد ممكن من الناس وفي أقل فترة زمنية ممكنة، وبأيسر أسلوب.

وبذلك نكون قد سعينا لتوفير مواصفات الأصالة والمعاصرة بأعلى صورها في منهجيتنا التربوية المقترحة. ولأن هذا العمل يمثل جهد المقل، فنحن لم نسعَ للوصول إلى توصيف شامل وكامل للموضوع، بقدر ما حاولنا أن نفتح الباب واسعاً لجهود مستقبلية مضافة تستكمل النقص وتسد الخلل.

وما ذكرناه هنا من تصنيفات وتمرينات ليس سوى نماذج وأمثلة لما هو أوسع وأكثر شمولاً. فمثلاً نحن لم نهتم بالتصنيفات المتعلقة بخطاب المسلمين وغير المسلمين، كاستخدام القرآن

الكريم لـ (يا أيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) و(يا أهل الكتاب) وما إلى ذلك، باعتبار أن هدف برنامجنا هو التطوير والتدريب لمن هم أساساً من المسلمين. وقد ركزنا على أن تتم الاستفادة بأكبر قدر ممكن من إمكانات الحواسيب ووسائل العرض السمع-بصرية الحديثة في إعداد أكثر جوانب البرنامج وتسهيل إعداد وحدات العرض، كما أطلقنا عليها.

نسأل الله تعالى القبول وأن يعاملنا بما هو أهلٌ له، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة..

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على نبيّه الأمين سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصـــادر

- **القرآن الكريم.**
- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت:٦٠٦هـ): مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية- طهران، والطبعة الثالثة لدار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٠هـ.
- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، والطبعة الأولى لدار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٥هـ.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، دار الشروق- بيروت، ١٩٨٥م.
- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الإفريقى (ت:٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت:٧٥١هـ): مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

المحتويات

الإهداء	٧
تقديم	٩
المقدمة	١٢
تجديدُ المرتكَز	١٩
رُقيّ فكري إيماني	٢٥
فِقهُ العالِم وعِلمُ الفقيهِ	٣٦
للناس فيما يفهمون مذاهب!	٤٤
سَكينة الإيمان	٥٤
أنماط الفاعلية العقلية	٥٨
التذكّر طريق الشكر	٦٢
استقصاء التوَسُّم	٦٦
ذرى الإحسان	٧١

قواعد الارتقاء الخطابي ٧٤
ملامح المنهج التربوي المقترح ٨٢
من التصنيفات القرآنية في الخطاب ٨٨
نماذج من الفعاليات والتمارين العملية ٩٨
الخاتمة ١٠٦
المصادر ١٠٨
المحتويات ١١٠

* * * * *